رامي عطا صديق

غاندي

رسالة اللاعنف والتسامح



تقديم:

فايز فرح

Jadawel جداول



غاندي

رسالة اللاعنف والتسامح

رامي عطا صديق

غاندي

رسالة اللاعنف والتسامح

تقديم:

فايز فرح

Jadawel جداول

الكتاب: غاندي.. رسالة اللاعنف والتسامح

المؤلف: رامي عطا صديق

تقديم: فايز فرح



جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

نيسان / أبريل 2014

ISBN 978-614-418-242-0

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2014 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

المحتويات

إهداء

(1)

إلى كل المؤمنين بقيم الحب والتسامح واللاعنف والسلام
وغيرها من القيم الإنسانية الراقية والمبادئ السامية
من أجل بناء وطن جديد يقوم على الحق والحرية والعدل والمساواة
وطن يتسع للجميع من دون تفرقة أو إقصاء أو تمييز

(2)

إلى نيافة الأنبا موسى
أسقف عام الشباب بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية
الأب.. الذي يُشجع أبناءه ويدفعهم إلى الأمام ويفرح دومًا لنجاحهم
الراعي.. الذي يهتم بالكل ويفيض عليهم بكل ما هو راقٍ وجميل
مُحب التنوير.. الذي عرفته دائمًا رجلًا مُستنيرًا ومُنيرًا
رمز المحبة والتسامح والسلام
له مني كل حُب وتقدير واعتزاز واحترام

رامي

تقديم

المهاتما غاندي أحد الشخصيات التي تُزين تاريخ الإنسانية وتُنير الطريق الإنساني إلى الأفضل دائمًا. فهو إنسان بسيط متواضع محب للبشر، يحترم الإنسان في كل زمان ومكان، آمن بالحب كفلسفة يستطيع من طريقه تحقيق كل ما تتمناه الإنسانية وتبغيه البشرية من سلام دائم ورفاهية مطلوبة، واحترام لكل الدنيا. ومن هنا رفع شعار «ساتياجراها» أي لا للعنف. ولم تكن حياة الرجل بالسهلة البسيطة مثل شخصيته، بل كانت صعبة مليئة بالمشاكل لكن غاندي بابتسامته المعهودة انتصر على الضرب والإهانة والطرد من القطار لأنه أسود، ثم السجن والتعذيب لأنه يُدافع عن السود الذين لا يختلفون عن البيض في شيء، فالإنسانية كلها أبناء آدم وحواء. في جنوب أفريقيا تعذب أيضًا لكنه دافع عن أهل بلده وعن شعبه وعن الإنسانية بكل ما يملك من قوة، وهو قديس القرن العشرين بلا منازع لأنه يُدافع عن الملوّنين والمظلومين بشجاعة من دون انتظار أي ردّ فعل أو مجاملة، وعندما حاول البعض منحه بعض الهدايا رفض بشدة وقال: الذي يعمل من أجل الناس لا ينتظر شيئًا! وكان يعمل كمحام من دون أجر فقد كان أجره هو تبرئة المظلوم وحرية المسجون.

قصة حياة غاندي مهمة جدًّا لشعوب العالم كي تتعلّم الحب العظيم والتضحية من أجل الإنسان، وكانت مواقفه جادة وقوية على الرغم من ضعف جسده وتواضع ملابسه وحاجاته القليلة في الحياة، فقد كان طعامه الخبز والملح واللبن فقط. ومن عجب أن يرحل عنا هذا القديس عام 1948 على يد أحد المرضى بالتعصب لأنه يُدافع عن الجميع.

وأسعدني أن يعرض الدكتور رامي عطا صديقي كتابه «غاندي: رسالة اللاعنف والتسامح» عليّ لكي أقرأه وأستزيد من معرفتي بهذا الرائد والمفكّر والزعيم الكبير. وقد أصدر الدكتور رامي قبل ذلك عدّة كتب ثقافية مفيدة للقراء وقد أصبح معروفًا للقارئ والمثقفين، كما أنه ينشر مقالاته الفكرية المهمة والتي تتناول مشاكل مصر في جريدة الأهرام وغيرها، وبالتالي فهو يقف في صف واحد مع المثقفين المناضلين من أجل حياة أفضل وفكر أرجح، لشعب مصر، وإنني لأهنئه على كتابه هذا وكتبه الأخرى، وأتمنى أن أقرأ له المزيد، فهو شاب طموح وأكاديمي دؤوب وأديب مثقف يُشرّف شباب مصر بشخصه وعلمه وأدبه بل هو نموذج أرجو لشبابنا أن يعملوا مثله ويتعرّفوا على مسيرته الناجحة ومستقبله العظيم إن شاء الله.

فايز فرح

مقدمة

يُمثل المهاتما غاندي (1869 ـ 1948م)[1]، الزعيم الهندي المعروف، بصدق ومن دون مبالغة، حالة فريدة ومتميزة في تاريخ البشرية، ذلك أنه كان مُناضلًا مُستنيرًا، يبرز اسمه بين مشاهير العالم ورواد التنوير خلال سنوات القرن العشرين، كما أنه يقف في الصف الأول بين المجاهدين والمناضلين المكافحين الذين عرفتهم البشرية على مر التاريخ.

كان غاندي رجلًا متميزًا، ويأتي تميزه في المقام الأول بسبب ما حمله من قيم سامية ومبادئ إنسانية راقية، كان لها تأثيرها الكبير في نفوس كثيرين، ليس فقط ممن عاصروه وعاش بينهم، فتأثروا به، ولكن أيضًا في نفوس كثيرين من خارج الهند، في آسيا وأوروبا وأفريقيا والأميركتين، بل ومن خارج عصره أيضًا، حيث انتقلت آراؤه وانتشرت أفكاره عبر الزمان والمكان لتصبح أفكارًا عالمية لها قيمتها ومكانتها وتقديرها الكبير.

كان الحق واللاعنف هما مبدآ المهاتما غاندي باستمرار. كما أن غاندي قد تميز بالبساطة ورباطة الجأش، وكان الاستعداد لتحمل الأذى والألم جزءًا لا يتجزأ من حياته.

(1) المهاتما: تعني الروح الأعظم.

حفلت حياة غاندي بالكثير من المواقف، وكانت مواقفه، وأقواله على حد سواء، تتفق مع تعاليم السماء، حيث عالم القداسة والبِر والطهارة والنقاء، وهي تعاليم مُستنيرة ومُنيرة تدور في مجملها حول الحب والحق والخير والتسامح والتعاون وعمل الرحمة مع الجميع وطلب السلام ومحبة الإنسان لأخيه الإنسان، ومن جانب آخر الابتعاد عن الظلم والغش والأنانية والجور على حقوق الآخرين.

لقد قدم المهاتما غاندي في حياته مجموعة من القيم الراقية بطريقة عملية وممارسة حية، حيث اشتملت حياته على مجموعة من المبادئ والقيم العملية، يتفق فيها القول مع العمل والكلام مع الفعل.

آمن غاندي على نحو واضح بالمساواة بين جميع المواطنين، من دون تمييز بين مواطن وآخر، وقد سعى إلى تأكيد تلك المساواة في الممارسات الحياتية والمعاملات اليومية كافة، كما أنه رفض الطبقية والتقسيم الطبقي بين المواطنين، مُعلنًا حربًا لا هوادة فيها على التقسيم الطبقي الذي فرضه واقع وأكدته ظروف مجتمعية شتّى احتاجت إلى الكثير من التغيير.

وهذا الكتاب يُلقي الضوء على لقطات بارزة ومحطات مهمة في حياة المناضل العظيم المهاتما غاندي، من خلال إبراز مواقفه وأفكاره ورؤاه التي نادى بها وناضل من أجلها وكافح في سبيلها. لعلنا نتعلم ونستفيد من تلك المواقف والرؤى والأفكار، نستلهمها في حياتنا وسلوكياتنا، ونحن نتطلع إلى بناء حاضر أفضل ومستقبل مُشرق لأوطاننا وعالمنا الإنساني المشترك، مُتمنيًا أن يسعد القرّاء الأعزاء بقراءة هذا الكتاب.

رامي
Ramyatta610@yahoo.com

حياة غاندي

غاندي (1869 ـ 1948م) هو الزعيم الروحي للشعب الهندي وقائد نضاله التحرري ضد الاستعمار البريطاني، كما أنه يُعتبر أحد كبار القادة السياسيين في العالم خلال سنوات القرن العشرين. لقّبه شعبه بـ «المهاتما» Mahatma والتي تعني «الروح العظيمة».

نشأته ودراسته

ولد موهانداس كارمشند غاندي (Mohandas Karamchand) في الثاني من شهر تشرين الأول/ أكتوبر في بلدة بورباندار (Porbandar) على الساحل الغربي للهند، لأسرة متوسطة الحال تنتمي إلى طبقة الـ «فيشيا» (vaishya)، التي يعمل أفرادها في التجارة والصناعة، وهي الطبقة الثالثة في الترتيب الطبقي الاجتماعي في الهند، بعد البراهما والكشاتريا.

وكلمة غاندي تعني التاجر الصغير، أو البقال، فقد كانت أسرته تعمل في التجارة، ثم ما لبث جدّه أن اتجه إلى العمل السياسي، فأصبح رئيسًا لوزراء مقاطعة بورباندار، وتلاه ابنه كارمشند (والد المهاتما غاندي) على المنصب نفسه.

في عام 1876م دخل غاندي مدرسة راجكوت الابتدائية، ثم انتقل إلى المدرسة الثانوية عام 1881م، وتخرج منها عام

1887م. وفي عام 1883م، أثناء دراسته الثانوية، وكان آنذاك في الثالثة عشرة من عمره، تزوج غاندي من كاستورباي، (وتُكتب أحيانًا كاسترباي)، والتي كانت في نفس عمره تقريبًا، ورُزق منها بأربعة أطفال.

سافر غاندي بعد ذلك إلى إنكلترا لدراسة الحقوق، وسط انقسام أبناء طائفته ما بين مؤيد لسفره ومعارض، ثم عاد إلى وطنه الهند في عام 1891م ليمارس المحاماة في راجكوت. ولما لم ينجح نجاحًا يُذكر، فإنه سافر إلى جوهانسبرج (Johannesburg) في جنوب أفريقيا ليعمل محاميًا لأحد الشركات/ البيوت التجارية الهندية التي لها تعاملات هناك، كما عمل مُدافعًا عن الجالية الهندية وجميع الملونين في جنوب أفريقيا ضد التفرقة العنصرية وضد كل أشكال التمييز العنصري التي كانت تُمارس ضدهم في ذلك الوقت، لصالح الأوربيين والبيض.

لقد لاحظ غاندي منذ وصوله جنوب أفريقيا أن الهنود لم يكونوا موضع احترام كبير. بل إن غاندي نفسه تعرض لبعض المضايقات بسبب كونه هنديًا ملونًا، وبالأخص عند استخدامه السكك الحديدية في السفر والتنقل والترحال، من حيث رفض البعض لوجوده بالدرجة الأولى ومحاولاتهم إجباره على التواجد بالدرجة الثالثة مع الملونين، أو رفض نزوله للإقامة في أحد الفنادق التي تستقبل البيض فحسب، وغير ذلك من المعاملات والممارسات التي تنتقص من قيمته وكرامته بوصفه إنسانًا أولًا وأخيرًا. ومن ثم فإنه أخذ يدافع عن حقوق الهنود والملونين.

والواقع أن غاندي ذهب إلى جنوب أفريقيا أكثر من مرة،

وفي إحدى المرات اصطحب أسرته معه، وكان باستمرار يناضل في الدفاع عن حقوق الهنود، مُهاجمًا التميز العنصري بين البيض والملونين لصالح البيض، وقد بقي في جنوب أفريقيا نحو إحدى وعشرين سنة صرفها كلها في الدفاع عن حقوق الهنود.

يُذكر أن غاندي في عام 1904م أصدر في جوهانسبرج صحيفة أسبوعية أسمّاها «**الرأي الهندي**» (Indian Opinion)، وكان يحرر مقالاتها الافتتاحية، وعلى صفحات تلك المجلة شرح مبادئ الساتياغراها، أو الساتياجراها، حيث الحق والمحبة والمقاومة بطريق اللاعنف، أو بتعبير غاندي نفسه «القوة المنبعثة من الحق ومن المحبة»، وهي كذلك تعني عنده «الحركة المنزهة عن كل عنف».

نضاله في سبيل استقلال الهند

في عام 1914م عاد غاندي نهائيًا إلى وطنه، بعد 21 سنة قضاها في جنوب أفريقيا، وبدأ كفاحه الوطني ضد الاستعمار البريطاني.

وفي عام 1915م أنشأ مؤسسة أشرام «Ashram» الاجتماعية لمساعدة المنبوذين وإيوائهم. وقاد مظاهرة عمال النسيج في مدينة أحمد آباد عام 1918م، وقام بأول صيام لإرغام أصحاب المصانع على تسوية أوضاع العمال، وفي العام نفسه (1918م)، قاد مظاهرة للفلاحين في مدينة كهيدا (Kheda).

شن غاندي حملة واسعة عام 1919م ضد قانون رولات «Rowlatt Bills» الذي يقيد الحريات المدنية، ودعا الشعب إلى التظاهر السلمي وترك اللجوء إلى العنف. وإثر مجزرة

مدينة آمريتسار، التي وقعت في 13 نيسان/أبريل 1919م، والتي أسفرت عن مقتل نحو 400 شخص وجرح أكثر من 2000 من المدنيين الهنود، حيث أصدر أحد الضباط أوامره إلى رجاله بإطلاق النار على تجمع غير مسلح، فإن تلك المجزرة قد زادت من تصميم غاندي على مواجهة المحتلين بالمزيد من الوسائل السلمية، اللاعنفية، فأعلن غاندي عام 1920م اعتماد سياسة الساتياغراها (Satyagraha)، وهي تعني سياسة اللاعنف في مقاومة الاحتلال، وحدد المهاتما غاندي معالم هذه السياسة في النقاط التالية:

- ترك التعاون مع سلطات الاحتلال في إدارتها واستغلالها للبلاد.
- رفض الألقاب والمناصب التي تخلعها بريطانيا على الهنود.
- مقاطعة شاملة للبضائع البريطانية.
- مقاطعة الخدمة العسكرية وترك دفع الضرائب ومقاطعة المحاكم البريطانية.

ودعا غاندي إلى استخدام المغازل اليدوية لتأمين الملابس، وإلى التحكيم الأهلي بدلًا من المحاكم البريطانية، كما أنه دعا إلى تعزيز اقتصاد القرية لتأمين الحاجات الضرورية. فقد بدأ غاندي آنذاك تطبيق برنامج «النسيج والحياكة اليدويان».

لقد بدأ غاندي تطبيق برنامج «النسيج والحياكة اليدويان» في عام 1920م مؤمنًا أن ذلك سيؤدي إلى:

- دعم الحرية الاقتصادية لناحية الكفاية الذاتية في قطاع الملابس.

- تطوير الحرية الاجتماعية بتأكيد كرامة العمل اليدوي واليد العاملة.
- تحقيق الحرية السياسية بتحدي صناعة الملبوسات البريطانية وتحضير الشعب الهندي للحكم الذاتي.

في عام 1927م أرسلت بريطانيا بعثة برئاسة جون سيمون (J. Simon) للمفاوضة حول الدستور الهندي الجديد. ولكن غاندي رفض الاشتراك في المفاوضات، ودعا إلى مقاطعة البعثة بترك الخروج إلى الشوارع طوال وجودها في الهند، وبالفعل رجعت البعثة خائبة دون نتيجة.

في عام 1930م نظم غاندي مسيرة كبيرة إلى البحر من مدينة سابرماتى أشرام ((Sabarmati Ashram حتى مدينة داندي (Dandi)، تحديًا للقانون البريطاني الذي حرم السكان المحليين من إنتاج الملح وحصره بالبريطانيين، وفرض ضرائب عالية على بيعه. وقد قطعت المسيرة 240 ميلًا (نحو 380 كم) على الأقدام وانضم إليها مئات الآلاف من سكان القرى والمدن. وأدت هذه المسيرة إلى انتشار اليقظة السياسية الوطنية في الهند عامة، وانضمام الفلاحين والنساء إلى الحركة الوطنية. فلقد اختار غاندي ضريبة الملح مادة لكفاحه لأنها كانت ضريبة تؤذي الفقراء والبسطاء، ذلك أن الملح كان يدخل في إعداد كثير من ألوان الطعام التي يأكلونها.

وفي العام نفسه (1930م) دُعي غاندي مع عدد من قادة حزب المؤتمر إلى لندن للمشاركة في مؤتمر مائدة مستديرة لوضع دستور جديد للهند، وعندما لمس مراوغة الجانب البريطاني في المفاوضات قاطعها، مُفضلًا الرجوع إلى الهند ليُتابع كفاحه.

في سنة 1933م أصدر غاندي مجلة أسبوعية باسم «هاريجان» (Harijan)، أي (أبناء الله)، بدلًا من مجلة «يونغ إنديا» (Young India)، أي (الهند الفتية)، مُؤمنًا بدور الصحف في تنوير الأذهان ونشر الثقافة بين الجماهير، وعلى صفحاتها نشر الكثير من الرؤى والأفكار والكتابات المستنيرة.

وفي العام نفسه صام غاندي ثلاثة أسابيع احتجاجًا على النبذ وترك اللمس الموجه ضد أفراد الطبقات الدنيا في المجتمع الهندي، ثم قام بجولة في أنحاء الهند دامت نحو عشرة أشهر كرسها لوضع حد للنبذ وترك اللمس الموجه إلى أفراد الطبقات الدنيا في جميع ولايات الهند، مما عرضه للكثير من مضايقات المتعصبين والمتشددين والعديد من محاولات الاغتيال.

قاد غاندي في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1940م، أثناء الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، حركة عصيان ومظاهرات على أثر اعتبار الهند في حال حرب ضد بلدان المحور[1]، انتهت باعتقال آلاف المتظاهرين.

وفي سنة 1942م وصل الصراع مع الحكم الأجنبي إلى ذروته، ونظم حزب المؤتمر حركة تدعو البريطانيين إلى ترك الهند، وأطلق غاندي جملته الشهيرة «اتركوا الهند وأنتم أسياد»،

---

(1) قامت الحرب العالمية الثانية عام 1939م واستمرت إلى سنة 1945م، بين فريقين أساسيين: دول التحالف (الاتحاد السوفيتي ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ الولايات المتحدة الأميركية)، ودول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان وانضمت إليها دول أخرى مثل: النمسا ـ رومانيا ـ بلغاريا ـ المجر)، وانتهت الحرب بانتصار دول الحلفاء.

فعمدت السلطات البريطانية إلى اعتقال غاندي مع عدد من زعماء المؤتمر، وما أن علمت جماهير الشعب الهندي بخبر هذا الاعتقال حتى خرجت بمظاهرات صاخبة في جميع أنحاء الهند احتجاجًا واستنكارًا، قابلتها السلطات البريطانية بحملة قمع دموية ذهب ضحيتها عدد كبير من الهنود. وفي شهر أيار/مايو من سنة 1944م أُطلق سراح غاندي بعد أن تدهورت صحته.

في عام 1946م جرت مفاوضات بين الحكومة العمالية البريطانية وقادة حزب المؤتمر حول استقلال الهند، وفي هذه الأثناء شهدت البلاد اضطرابات طائفية، طالب المسلمون في أثنائها بإقامة دولة إسلامية مستقلة في باكستان. ولم تفلح جهود غاندي في إقناع محمد علي جناح (1876- 1948م)، مؤسس دولة باكستان، بالعدول عن هذا المشروع في الوقت الذي استطاع فيه نائب الملك في الهند إقناع قادة حزب المؤتمر بالموافقة على مطلب المسلمين.

نالت الهند استقلالها سنة 1947م، ولكن غاندي حزن كثيرًا بسبب تقسيم الهند إلى دولتين مستقلتين هما: الهند وباكستان. وقد أصر غاندي على رفض التقسيم ورفض المشاركة في احتفالات الاستقلال، وانسحب من ميدان العمل السياسي وانصرف إلى عباداته.

وفي 30 كانون الثاني/يناير سنة 1948م، بينما كان غاندي متوجهًا إلى الصلاة، في معبد بنيودلهي، أطلق عليه النار هندوسي متعصب وأرداه قتيلًا ـ حيث أطلق عليه أربع رصاصات قاتلة ـ احتجاجًا على دعوات السلام واللاعنف بين أبناء القارة الهندية، واحتجاجًا على دعوته المواطنين الهندوس

إلى التعايش مع سواهم من المجموعات الدينية والعرقية الأخرى، وبدعوى أنه فتّت تماسك الهند ووحدتها بمساندته الأديان والطوائف الأخرى.

والواقع أن اغتيال المهاتما غاندي على هذا النحو قد مثل صدمة للهند، بل وللعالم أجمع، كما مثل ـ وحسب تعبير البعض ـ مثالًا على سقوط رسل السلام ودعاته العزل بأيدي المتطرفين الجهلة أو أصحاب المصالح والمستفيدين من استمرار البشر في قتل بعضهم.

ثقافته وأفكاره

اطلع غاندي بعمق على الفلسفة الهندية القديمة وعلى الديانة البوذية. كما اطلع على **الكتاب المقدس** الخاص بالديانة المسيحية، ولا سيما العهد الجديد منه. وقرأ ترجمة إنكليزية لمعاني **القرآن الكريم**. وتعرف على مؤلفات الكاتب الروسي تولستوي. وقرأ **رأس المال** لماركس وعددًا من مؤلفات لينين. كما اطلع على كتابات الأميركي هنري ثورو الذي اشتهر بمعارضته للحرب الأميركية على المكسيك، ودعوته إلى العيش في الطبيعة بأقل قدر من الاستهلاك. وقد شرح غاندي فلسفته وآراءه في كتابه **(قصة تجاربي مع الحقيقة)**، ويبرز في فلسفته مبدآن أساسيان:

- ساتياغراها (Satyagraha) وهي كلمة سنسكريتية تعني التمسك بالحق بقوة.
- أهيمسا (Ahimsa) ومعناها اللاعنف الإيجابي، وهي الفضيلة المُثلى.

عن ذلك يقول: «إن اللاعنف هو أعظم القوى في خدمة الجنس البشري وأقوى سلاح ابتدعته عبقرية الإنسان». وقد عد اللاعنف بأنه التحرّر من الخوف والسعي إلى العدالة. كما دعا المهاتما غاندي إلى المساواة في توزيع الحاجات المادية من طريق وضع وسائل الإنتاج تحت سيطرة الشعوب، وكان يدعو إلى الديمقراطية التي تعني في رأيه النظام الذي تتوافر فيه لأضعف الناس الفرص نفسها، التي تتوافر لغيره من الأقوياء.

رأيه في الدين

قرأ المهاتما غاندي الكتب المقدسة لكثير من الأديان، واعتبر أن الدين ضروري لحياة الإنسان، لأنه يوفر له الطمأنينة الروحية، وعنده أن جوهر الأديان واحد، وجميعها يحتوي على عناصر من الحقيقة المطلقة.

وقد ناضل غاندي من أجل تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، كما عمل من أجل إلغاء طبقة المنبوذين وإلغاء الامتيازات الطبقية.

مواقف من حياة غاندي

للمهاتما غاندي مواقف عديدة، علمت الكثيرين ممن عاشوا حوله الكثير من القيم والمبادئ، وفي الصفحات التالية سنذكر بعض هذه المواقف التي انطوت على قيم سامية واحتوت على مبادئ إنسانية[1].

غاندي يرفض الغش

أثناء دراسته في المدرسة الثانوية، حدث أن زار المدرسة مفتش التعليم ليطمئن على مستوى التلاميذ، وأملى المفتش عليهم خمس كلمات ليكتبوها، وتوقف غاندي عند كلمة منها لم يتذكر حروفها، وهي كلمة (غلاية Kettle)، ورآه المدرس وهو تائه عن الصواب لا يعرف تلك الكلمة، فغمزه بمقدمة حذائه، لكن غاندي الفتى البريء لم يفهم هدف المدرس، إذ كان المدرس

---

(1) تم الاعتماد في هذا الجزء على كتابين أساسيين هما: غاندي، **في سبيل الحق أو قصة حياتي**، ترجمة: محمد سامي عاشور، القاهرة: دار المعارف بمصر، 1969م .راجندرا برازاد، **تحت قدمي غاندي**، ترجمة: منير البعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت: دار العلم للملايين، 1959م.

ملحوظة: في بعض الأجزاء فضلنا نشر الموقف أو القصة كما هي من دون تدخل.

يريد منه الاطلاع على صواب الكلمة من زميله الذي يجلس بجواره، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح غاندي الطالب الوحيد الذي لم يصل إلى الإجابة الصحيحة، لأنه رفض الغش، وقد ظل طوال حياته لا يعرفه.

غاندي يُعاني من التمييز

يحكي غاندي في مذكراته، والتي جاءت تحت عنوان (**في سبيل الحق أو قصة حياتي**)، أنه ركب قطارًا في جنوب أفريقيا[1]، ودخل راكب المقصورة التي كان فيها بعد ذلك وأخذ يحدق ببصره فيه ويتفرسه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. فلما وجده ملونًا فإنه، أي الراكب، خرج مُستاءً، ثم عاد ومعه اثنين من موظفي السكة الحديد ووقف الجميع ساكتين إلى أن لحق بهم موظف ثالث..

فقال لي: «تعال معي! فإن مكانك في الدرجة الثالثة».

«ولكني أحمل تذكرة للسفر بالدرجة الأولى».

«هذا لا يهم في شيء. لقد قلت لك يجب أن تذهب إلى الدرجة الثالثة».

«وأنا أقول لك لقد سُمح لي بالسفر في هذه المقصورة من دربان، وأنا مُصر على أن أبقى فيها».

---

(1) كانت دولة جنوب أفريقيا تُعاني آنذاك من سياسة التفرقة العنصرية، أو التمييز العنصري، ضد السود لصالح البيض، وهي السياسة المعروفة باسم أبارتيد ((Apartheid))، وفي مواجهة سياسة التفرقة العنصرية بجنوب أفريقيا يُذكر اسم المناضل المعروف نيلسون مانديلا (1918 ـ 2013م).

غير أن الموظف استمر في عناده، ثم أخذ يهددني قائلًا: «هذا لن يكون. يجب أن تترك هذه المقصورة، وإلا استدعيت البوليس ليخرجك منها عنوة».

«فلتفعل ما تريد، فإنني أرفض أن أخرج منها طائعًا».

وجاء شرطي فأمسك بيدي ثم دفعني خارج المقصورة وألقى بحقائبي إلى الرصيف، ولكني رفضت أن أذهب إلى الدرجة الثالثة كما أرادوا، وانطلق القطار في طريقه حتى خرج من المحطة وأنا واقف مكاني أُراقبه.

واتجهت إلى حجرة الاستراحة فجلست فيها حاملًا معي حقيبة اليد، أما سائر حقائبي فقد تركتها حيث كانت بعد أن تعهدت بها إدارة المحطة.

كان الفصل فصل شتاء، والشتاء في الأقاليم المرتفعة في جنوب أفريقيا شديد البرودة، ولما كانت ماريتزبرج شديدة الارتفاع، فقد كان بردها قارصًا، ولم يكن معطفي معي، فقد تركته بين متاعي، ولكني فضلت أن أجلس حيث أنا، وأن أظل مرتعدًا من شدة البرد، على أن أطلبه فأهان مرة أخرى.

وأخذت أفكر فيما يجب على أن أفعله. هل أدافع عن حقوقي ثم أعود إلى الهند على الفور؟ أم أواصل سفري إلى بريتوريا من دون أن أبالي بهذه الإهانة، ولا أعود إلى الهند حتى تنتهي القضية؟ إنني لو هربت إلى الهند قبل أن أتمّ التزاماتي لكان ذلك الجبن بعينه. أما التجربة القاسية التي تعرّضت لها الآن فليست سوى مسألة عارضة ومظهر من مظاهر ذلك الداء الدفين الذي تولد في عقول الناس بسبب التمييز العنصري. أما واجبي الحقيقي فهو العمل بقدر ما أستطيع على اقتلاع هذا الداء

الدفين، وأن أتحمل في سبيل ذلك كل ما يعترضني من صعاب. ولهذا فقد قررت أن أركب القطار التالي إلى بريتوريا.

وأرسلت في الصباح برقية طويلة إلى مدير عام السكة الحديد، كما أنبأت عبد الله شيت بما كان لي فتوجه من فوره لمقابلة المدير. وقد حاول هذا خلال حديثه معه أن يبرر سلوك موظفيه، وطمأنه بعد ذلك بأنه قد أرسل على أية حال تعليمات إلى ناظر محطة ماريتزبرج يطلب إليه فيها أن يعمل على التأكد من وصولي إلى حيث أريد.

وأبرق عبد الله من ناحيته إلى التجار الهنود في ماريتزبرج، وإلى أصدقائه في جهات أخرى يرجوهم مقابلتي والاهتمام بأمري. وجاء التجار لاستقبالي في المحطة وحاولوا جهدهم أن يسروا عني فأخذوا يقصون عليّ ما صادفهم من صعاب في هذا الصدد، ويؤكدون لي أن ما حدث لي إنما هو أمر عادي في حياتهم، وأن الهنود الذين يسافرون بالدرجة الأولى أو الثانية، يجب أن يتوقعوا كثيرًا من المضايقات من موظفي السكة الحديد ومن الركاب البيض.

مر النهار وأنا أستمعُ إلى هذه القصص المخزية حتى وصل قطار المساء فركبته وكان لي فيه مكان محجوز، وإن كنت قد حرصت في هذه المرة على شراء تذكرة لمقصورة النوم التي رفضت أن أحتجزها وأنا في دربان.

وبلغ القطار مدينة تشارلستون في الصباح، ولم يكن هناك في ذلك الوقت خط حديدي يربط بين تشارلستون وجوهانسبرج، فكان الركاب يسافرون إليها بالعربات التي تجرها الجياد ويبيتون ليلتهم في الطريق بمدينة ساندرتون. وكنت أحمل معي تذكرة للسفر في

إحدى هذه العربات، وكانت التذكرة لا تزال صالحة للاستعمال. على الرغم من تخلفي في محطة ماريتزبرج يومًا كاملًا.

ولكن مندوب الشركة التي تسير هذه العربات لم يكن يعوزه إلا أوهى الأسباب لكي يحول بيني وبين ركوب العربة، فزعم أولًا أن تذكرتي قد أصبحت ملغاة، وإن كان السبب الحقيقي شيئًا آخر غير هذا فقد كان عليه أن يجلس الركاب داخل العربة، ولكن أما وقد كنت في نظره واحدًا من «الكولي»، (ومعناها حمال، وهو لقب يُطلق في جنوب أفريقيا على الهنود على سبيل التحقير)، فقد رأى ألا يسمح لي بالجلوس بين الركاب، وأن يجلسني بدلًا من ذلك في أحد المكانين الذين يقعان على جانبي السائق. وكان «الريس» ـ كما كان يُطلق على الرجل الأبيض الذي يُشرف على العربة ـ يجلس عادة في أحد هذين المكانين، ولكنه في هذه المرة جلس داخل العربة وأعطاني مكانه. لقد كنت أدرك أن ما فعله ينطوي على ظلم فاحش وعلى إهانة بليغة لي، ولكني فضلت أن أتغاضى عن ذلك فلم يكن لي سبيل إلى إقحام نفسي داخل العربة بالقوة، فضلًا عن إنني لو احتججت على هذا العمل لانطلقت العربة من دوني، مما يترتب عليه ضياع يوم آخر، ولا يعلم إلا الله ماذا كان ليحدث في اليوم التالي. ولهذا، فعلى الرغم مما كان يعتمل في قرارة نفسي من غيظ مكبوت فقد آثرت سبيل الحكمة، وجلست إلى جانب السائق.

وفي حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلت بنا العربة إلى بارديكوف، وبينما نحن هناك رغب «الريس» في الجلوس مكاني إذ كان يريد أن يدخن، ولعله كان يريد إلى جانب ذلك أن يستمتع بالهواء الطلق، فما كان منه إلا أن أخذ من السائق قطعة

قذرة من قماش الأكياس فوضعه على سلم العربة، وقال يخاطبني: «اجلس أنت هنا، فإني أريد أن أجلس قريبًا من السائق». لقد كانت هذه إهانة لا قِبل لي على احتمالها، فقلت له وأنا أرتعد «بل أنت نفسك الذي أجلستني هنا، مع أن مكاني كان يجب أن يكون داخل العربة، وقبلت الإهانة مع ذلك، والآن تريد مني أن أجلس تحت قدميك لأنك تريد أن تجلس في الهواء الطلق وتدخن، إنني لن أفعل ما تطلب مني وإن كنت مع ذلك مُستعدًا لأن أجلس داخل العربة».

وبينما كنت أجاهد لكي تخرج تلك الكلمات هزيلة متثاقلة من بين شفتي، إذ بالرجل يهجم عليّ ويعُمل فيّ ضربًا ولطمًا ثم يمسك بذراعي ويحاول أن يجرني جرًّا من مكاني. وتشبثت بالسياج النحاسي الذي يحيط بالمقعد الذي أجلس عليه، وصممت على أن أظل متشبثًا به حتى ولو انكسر معصمي دون ذلك. وجلس الركاب يشهدون هذا المنظر: الرجل وهو ينهال على سبًا ويوسعني ضربًا ولكمًا، ويحاول أن يجرني من مكاني جرًا، وأنا وقد بقيت ثابتًا في مكاني لا أتزحزح، وهو القوي وأنا الضعيف الهزيل. وأخذت الشفقة بعضهم فصرخوا في الرجل: «يا رجل! دعه وشأنه! لا تمسه بسوء! إنه لا ذنب له. إنه على حق. إذا كان لا يستطيع أن يجلس مكانه فليأت ليجلس معنا هنا». وأجابهم الرجل: «لا هذا لن يكون»، قالها وإن كان قد بدا متهالكًا متخاذلًا بعد أن كف عن ضربي. وأخيرًا رفع قبضته من حول ذراعي وهو يلعن ويتوعد. ثم طلب إلى السائس الذي يجلس في الناحية الأخرى من السائق أن يجلس على سلم العربة ليُخلي مكانه له.

وعاد الركاب إلى مقاعدهم داخل العربة، وانطلقت الصفارة إيذانًا لها بالسير. كان قلبي يدق دقات متواصلة، فقد كنت بدأت أشكّ فيما إذا كنت سأصل إلى المكان الذي أقصده حيًا، وكان الرجل لا يكفّ عن النظر إليّ بين الحين والحين بعين ملؤها الغضب وهو يقول: «احترس! فسوف ترى ما أنا صانع بك عندما نصل إلى ساندرتون». وهكذا جلست في مكاني صامتًا لا أنطق بكلمة وأنا أدعو الله أن يمد إليَّ يد العون.

ووصلنا إلى ساندرتون، بعد أن غابت الشمس، وحل الظلام، فلما وقع نظري على بعض الهنود تنفست الصعداء، وما كدت أنزل من العربة حتى تقدم مني هؤلاء الأصدقاء ليقولوا: «جئنا لاستقبالك واصطحابك إلى متجر عيسى شيت، بعد أن تسلمنا برقية من دادا عبد الله»، فلما وصلناه اجتمع صاحبه ومن يعملون معه من الكتبة حولي. فلما رويت لهم ما كان من أمري في الطريق أسفوا لما سمعوه وأخذوا يقصون عليَ تجاربهم المريرة لكي يسروا عني ويخففوا من وطأة ما لاقيت.

وأردت أن أبلغ الأمر إلى وكيل شركة العربات، فكتبت له خطابًا رويت له فيه كل ما حدث، ولفت نظره إلى تهديد رجله لي، كما طلبت منه توكيدًا بأن يعمل على إجلاسي مع سائر الركاب في مقعد بداخل العربة عندما نستأنف سفرنا في الصباح. وأجاب الوكيل على رسالتي بما معناه: «سيكون لدينا من ساندرتون عربة أكبر يتعهدها رجال غير أولئك، ولن يكون الرجل الذي شكوته من بينهم، وسيكون لك مقعد مع الركاب الآخرين»، وكان لهذه الرسالة أثرها في تخفيف بعض همي، إذ لم يكن في نيتي بطبيعة الحال أن أتخذ أية إجراءات قانونية

ضد الرجل الذي اعتدى عليّ. وهكذا أُسدل الستار على قصة هذا الاعتداء.

وفي الصباح جاء رجل من قِبل عيسى شيت ليصحبني إلى العربة، وقد ظفرت بمقعد طيب بداخلها، ووصلت جوهانسبرج سالمًا في المساء.

وإذا كانت ساندرتون قرية صغيرة فإن جوهانسبرج مدينة كبيرة وكان عبد الله قد أبرق إلى جوهانسبرج كذلك، كما كان قد أعطاني قبل سفري اسم متجر محمد قاسم قمر الدين وعنوانه فيها. غير أن الرجل الذي جاء ليستقبلني عند موقف العربات، نيابة عن هذا المتجر، لم يتعرف عليَّ، ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلى أحد الفنادق، وكنت أعرف أسماء بعضها. وركبت عربة وطلبت من سائقها أن يذهب بي إلى فندق جراندناسيونال، فلما طلبت من مديره أن يعد لي حجرة نظر إليَّ هنيهةً ثم قال بأدبٍ جمٍّ، وهو يهم بتوديعي إلى الباب: «إني آسف، فإن جميع الحجرات مشغولة»، فعدت أطلب إلى سائق العربة أن يتجه بي إلى متجر محمد قاسم قمر الدين فوجدت عبد الغني شيت في انتظاري هناك، وقد رحب بي ترحيبًا حارًا، وضحك من أعماق قلبه لما سمع بما حدث لي في الفندق وهو يقول: «كيف خطر ببالك أن يكون نزولك في أحد الفنادق هنا أمرًا ممكنًا؟».

وسألته: «لماذا؟».

قال: «ستعرف بعد أن تقيم بيننا أيامًا معدودات. وفي الحق أنه لا أحد غيرنا يستطيع أن يعيش في بلد كهذا، فإننا في سبيل جمع المال لا نبالي إذا أُهنا». ثم أخذ بعد ذلك يقصُّ عليَّ قصة الهنود في جنوب أفريقيا وما يلقونه من عنت فيها.

ثم استطرد يقول: «إن هذا البلد ليس لأمثالك. إن عليك أن تذهب إلى بريتوريا غدًا وستجد نفسك مضطرًا إلى السفر بالدرجة الثالثة، فالأحوال في الترانسفال أسوأ منها في ناتال، وتذاكر الدرجة الأولى والثانية لا تصرف فيها للهنود البتة».

وقلت له: «إنني أريد أن أسافر بالدرجة الأولى، فإذا لم استطع فسأكتري عربة إلى بريتوريا، وهي لا تزيد على مسيرة 37 ميلًا».

ولفت عبد الغني شيت نظري إلى ما يستوجبه ذلك من زيادة في النفقات وضياع للوقت، ولكنه عاد فوافق على اقتراحي السفر بالدرجة الأولى. ومن ثم فقد أرسلت إلى ناظر المحطة مذكرةً قلت له فيها إنني محام وأسافر دائمًا بالدرجة الأولى، وذكرت له حاجتي إلى السفر إلى بريتوريا في أسرع وقت، وقلت له إن وقتي لا يتسع لانتظار رده كتابةً، وإنني لذلك سأتلقى جوابه على هذه المذكرة شفاهًا عندما أذهب إلى المحطة، وأنني على أية حال أنتظر أن أتسلم تذكرة سفر بالدرجة الأولى. وكان لي هدف من قولي أنني «سأتلقى رده شفاهًا». فلو أنه أعطى هذا الرد كتابةً لكان جوابه بالنفي قطعًا. يدفعه إلى ذلك بصفة خاصة الصورة التي لا بد أن تعلق في ذهنه عن محام من «الكولي». لذلك رأيت من الأوفق أن أتقدم إليه بنفسي في زيٍّ إنكليزي لا تشوبه شائبة، وأن أتحدث إليه لعلّي أستطيع إقناعه بصرف تذكرة بالدرجة الأولى. وهكذا ذهبت إليه في بذلة الفروك وما يتبعها من رباط العنق الخاص ووضعت جنيهًا ذهبيًا أمام شباك التذاكر وطلبت تذكرة بالدرجة الأولى.

وسألني: «أأنت أرسلت إليَّ هذه المذكرة؟».

قلت: «نعم! وأكون شاكرًا لك جميلك لو صرفت لي تذكرة بالدرجة الأولى، إذ لا بد لي من الوصول إلى بريتوريا اليوم».

وابتسم ناظر المحطة ثم قال، وقد أخذه الشعور بالشفقة: «إنني لست من أهل الترانسفال، بل أنا من أصل هولاندي، ولذلك فإني أقدر شعورك، وأشاركك إحساسك، وأود مخلصًا أن أصرف لك التذكرة التي تطلبها، ولكن بشرط واحد، هو ألا تورّطني في شيء إذا طلب منك كومساري القطار الانتقال إلى الدرجة الثالثة. أقصد بذلك ألا تتخذ إجراءات قانونية ضد الشركة لو حدث ذلك. إنني أرجو لك سفرًا سعيدًا، فإني أراك رجلًا راقيًا بمعنى الكلمة». بهذه الكلمات على لسانه صرف ناظر المحطة التذكرة فشكرته وأعطيته التوكيدات اللازمة.

وكان عبد الله شيت قد جاء إلى المحطة ليكون في توديعي. وقد أدهشه هذا الحادث دهشةً يخالطها السرور، ولكنه حذرني قائلًا: «سأحمد الله إذا وصلت إلى بريتوريا سالمًا، ولكنني أخشى ألا يتركك الكومساري تجلس في هدوء، وحتى إذا تركك، فإن الركاب لن يتركوك».

وجلست في مقعدي بإحدى مقصورات الدرجة الأولى وتحرك بنا القطار وأنا جالس في مكاني، وجاء الكومساري ليفحص التذاكر فبدا عليه الغضب، وأشار إليَّ بإصبعه أن أذهب إلى الدرجة الثالثة فلما أبرزت له تذكرة الدرجة الأولى كان رده: «هذا لا يهم. هيا إلى الدرجة الثالثة».

ولم يكن معي في المقصورة غير راكب واحد، كان إنكليزيًا، فأخذ يناقش الكومساري الحساب، وقال له: «ماذا تقصد من إقلاق هذا السيد؟ ألا ترى أنه يحمل معه تذكرة

بالدرجة الأولى؟ إنني لا أمانع إطلاقًا بقائه معي في نفس المقصورة»، ثم التفت إليَّ يقول: «يجب أن تبقى مكانك وألا تدع شيئًا يقلقك».

وتمتم الكومساري يقول: «ما دمت تقبل على نفسك أن تسافر مع واحد من الكولي فماذا يعنيني؟».

غاندي يغفر لضاربه

يحكي غاندي في مذكراته أيضًا عن بعض ما تعرض له من تمييز عنصري في جنوب أفريقيا، فيقول:

أما اللائحة الخاصة باستعمال أفاريز الشوارع فقد كانت لي بشأنها تجربة أشد وأنكى. فقد اعتدت كلما خرجت للتريض أن اتجه عبر شارع الرئيس ومنه إلى سهل مكشوف على أطراف المدينة، وكان بيت الرئيس كروجر يقع في ذلك الشارع، وكان بيتًا متواضعًا إلى أقصى حدود التواضع، ليس في مبانيه ما يلفت النظر، وليست له حديقة، ولا يميزه عن غيره من البيوت في تلك المنطقة شيء. ولم يكن هناك ما يدل على أن ذلك البيت هو بيت أحد كبار رجال الدولة غير وجود حارس من رجال البوليس أمامه، فكنت دائمًا أسير على الإفريز وأمر بالحارس من دون عائق أو مانع.

غير أن الحارس كان يتغير من وقت لآخر حسب نوبة الحراسة. وقد حدث في إحدى هذه المرات أن انقض عليَّ أحد هؤلاء الحراس وأنا أمر أمامه، من دون إنذار سابق، وحتى من دون أن يطلب مني النزول من فوق الإفريز، فأوسعني ركلًا بقدمه وهو يدفعني بعيدًا عن الإفريز، وتولاني شعور باليأس والحسرة، ولكني قبل أن أجد وقتًا لسؤاله عن سبب هذا الاعتداء سمعت

المستر كوتس يناديني، وتصادف أنه كان يمر بهذا المكان فوق حصانه وهو يقول: «غاندي! لقد رأيت كل شيء بعيني، وأنا على أتم استعداد لأن أدلي بشهادتي أمام المحكمة إذا شئت أن تتخذ إجراءً قانونيًا ضد هذا الرجل. إني آسف أشد الأسف على هذه الإهانة التي لحقتك».

وقلت له: «لا تحمل همًّا! فماذا يعرف هذا المسكين؟ إن جميع الملونين واحد في نظره. إنه لا شك يعامل الزنوج كما عاملني بالضبط، وقد وضعت لنفسي قاعدة هي ألا ألجأ إلى القضاء في أي اعتداء يقع على شخصي ولذا فإني لا أعتزم اتخاذ أي إجراء قبله».

وقال المستر كوتس: «هكذا أنت دائمًا. أرجوك أن تفكر في الأمر مرة أخرى فإن من واجبنا أن نلقّن مثل هذا الرجل درسًا لا ينساه». ثم اتجه إلى الحارس يؤنبه على فعلته. ولم أستطع أن أتتبع حديثهما فقد كان يجري بينهما باللغة الهولندية بالنظر إلى أن الحارس كان من البوير، ولكنه اعتذر عقب الحديث عما فعل، وما كانت به في الواقع حاجة إلى الاعتذار فقد كنت عفوت عنه.

ولكني لم أعاود السير في هذا الشارع مرة أخرى بعد ذلك، فقد يكون هناك غيره من رجال البوليس في نوبة من نوبات حراستهم ممن لم يسمعوا بما حدث فيفعلوا ما فعل، فلماذا إذن أجلب على نفسي اعتداءً آخر من غير موجب؟ ومن ثم فقد اخترت لنفسي طريقًا آخر.

وتبيّنت من كل هذا أن جنوب أفريقيا ليس المكان الذي يليق بهندي يحترم نفسه، وأخذت فكرة إصلاح هذه الحالة ووسيلة هذا الإصلاح تشغلني شيئًا فشيئًا.

الصلح خير

يحكي غاندي عن المهمة التي من أجلها ذهب إلى جنوب أفريقيا، والخاصة بالعمل محاميًا لأحد تجار الهند من قاطني جنوب أفريقيا، وكان يُدعى عبد الله شيت. فيقول:

بان لي من دراسة وقائع قضية عبد الله أن الحق كان إلى جانبه، وأن القانون لا بد منتصف له، ولكني رأيت في الوقت نفسه أن التقاضي أمام المحكمة، لو سار في طريقه، لا بد أن ينتهي بخراب الطرفين: المُدعي والمُدعى عليه، وكلاهما قريب الآخر ومن نفس المدينة، وما كان أحد فوق ذلك يستطيع أن يتنبأ بالمدة التي قد يستغرقها النظر في القضية، وفكرت: أأترك القضية تسير في مجراها إلى أن يبت فيها أمام القضاء، وقد تظل على هذه الحالة إلى ما لا نهاية، من دون أن يكون في ذلك مصلحة لأحد الطرفين؟ إن كلا الطرفين كان على العكس حريصًا على الانتهاء منها على الفور ما أمكن.

واتصلت بطيب شيت ورجوته أن يقبل التحكيم فيها، واقترحت عليه أنه لو أمكن تعيين حكم يتمتّع بثقة الطرفين فإن القضية لا بدّ أن تنتهي في وقت قصير. لقد كانت أتعاب المحامين تتزايد وتتراكم بسرعة حتى كان من الممكن أن تبتلع مواردهما على سعة هذه الموارد، وهما التاجران الكبيران. أضف إلى ذلك أن شؤون هذه القضية قد شغلت عليهما بالهما فلم تدع لهما وقتًا يفكران فيه في شؤون تجارتيهما، فضلًا عن أن بقاء القضية معلقة كان كفيلًا بأن يزيد لهيب الحقد والكراهية بينهما.

وتملكني التفكير بهذا الأسلوب حتى رأيتني أشمئز من مهنتي. أليس على المحامي عن أي الطرفين أن يغوص في أعماق

القضية ليستجمع جميع النقاط القانونية التي تؤيده في دفاعه عن موكله؟ وقد بدا لي كذلك، للمرة الأولى، أن الطرف الذي يكسب القضية لا يستعيد جميع نفقاته التي أنفقها. فالمحاكم عندما تقضي في قضية بين طرفين تقدر أتعاب المحاماة وفق فئات معينة تحددها لوائحها، في حين أن المصروفات التي يتكبدها كل منهما بينه وبين محاميه أكثر من ذلك بكثير.

شعرت وقتها بأن ذلك كان أكثر مما يحتمل ضميري، وأن واجبي يقتضيني مصادقة كلا الطرفين والعمل على التقريب بينهما. وحاولت كل جهدي أن أصل إلى اتفاق يُرضي الطرفين، ووافق طيب شيت، وتم الاتفاق على تعيين حكم عدل بينهما استطاع بعد استعراض وقائع الخلاف ومناقشة وجهة نظر كلٍّ من الطرفين أن يقضي فيها، وجاء قضاؤه في مصلحة عبد الله.

ولكني لم أقنع بذلك. فلو أن موكلي أراد تنفيذ الحكم الذي قُضي له به على الفور لاستحال على طيب شيت أن يدبر المبلغ المطلوب كله دفعة واحدة، ومن القوانين غير المكتوبة بين مسلمي بورباندر المقيمين في جنوب أفريقيا أنه خير للمرء أن يموت على أن يوصم بالإفلاس، ولما كان من المستحيل على طيب شيت أن يدفع المبلغ الذي حُكم به عليه وقدره 37,000 من الجنيهات ـ عدا المصاريف ـ على الفور، وقد أبت عليه كرامته أن ينقص من هذا المبلغ درهمًا وكان في الوقت نفسه لا يريد أن يعلن إفلاسه، فلم يبق أمامه إلا طريق واحد ينقذه من هذه الورطة، وهو أن يقبل عبد الله أن يكون الدفع على أقساط معقولة، فكان عبد الله كريمًا فيما طلبه منه طيب شيت وقبل أن يُقسط المبلغ على أجل طويل.

كانت مهمتي في الحصول على مبدأ التقسيط أشق من مهمتي في حمل الطرفين على الموافقة على مبدأ التحكيم، وإن كان كلا الطرفين قد فرح بهذه التسوية في آخر الأمر وارتفع قدره في أعين الناس. أما فرحي أنا فلم يكن له حد، فلقد تعلمت منذ ذلك الوقت فن المحاماة على وجهه الصحيح. تعلمت أن ألتمس لدى الناس الجانب الطيب من طبيعتهم البشرية، وأن أشق طريقي إلى قلوبهم، أدركت أن واجب المحامي ـ كما يجب أن يكون ـ هو الجمع بين طرفين فرقت بينهما الخصومة، وانطبع هذا الدرس في أعماق قلبي حتى أصبحت أكرس معظم وقتي بعد ذلك، خلال السنوات العشرين التي زاولت فيها مهنة المحاماة ـ وفي مئات من القضايا ـ لكي أصل إلى التقاء الطرفين المتخاصمين عند حل وسط بعيدًا عن ساحة القضاء. ولم أخسر من جراء ذلك شيئًا. حتى المال لم أخسره. أما روحي فإني واثق من أنني احتفظت بها مبرأةً من كل رجس أو دنس.

بساطة الحياة

غاندي يعتمد على نفسه

يحكي غاندي: كانت قائمة حساب الكواء الذي يتولى غسل ملابسنا وكيّها باهظة مرهقة، ولم تكن المحافظة على المواعيد فوق ذلك إحدى خصائصه، حتى أضحى ما أملكه من قمصان وياقات ـ وكان عددها دستين أو ثلاثًا ـ لا يكاد يكفي لسد حاجتي، فقد كان عليَّ أن أبدل ياقتي مرة كل يوم وأن أبدل قميصي إن لم يكن مرة في اليوم فليس أقل من مرة كل يومين. وكان معنى ذلك زيادة في النفقات خلتها أمرًا لا ضرورة له. ومن ثم فقد عمدت إلى تزويد نفسي بمعدات الغسل والكي واشتريت

كتيِّبًا تعلمت منه هذا الفن ثم علمته بعد ذلك لزوجتي. صحيح أن مباشرة غسل ملابسنا وكيّها في البيت قد زاد من عبء العمل الذي يقع على كاهلي ولكن جدته جعلته مبعث سرور لي.

ولن أنسى أول ياقة من ياقاتي غسلتها بنفسي، فقد استخدمت في كيّها من النشاء أكثر مما يجب، ولم أحمِّ المكواة إلى القدر اللازم، ولم أضغط عليها الضغط الواجب حتى لا تحترق، وكانت النتيجة أن يبست الياقة إلى الحد المعقول ولكن النشاء الزائد العالق بها ظل يتساقط منها، وذهبت إلى المحكمة وقد ارتديتها فأثار ذلك سخرية إخواني المحامين، ولكني، حتى في تلك الأيام، كنت أتمتع بمناعة كبيرة ضد سخرية الناس فلا تنفذ إلى نفسي.

وقلت لهم: «هذه أول تجربة لي في كي ياقاتي وهذا سبب ما ترونه من النشاء السائب. إن الأمر لا يزعجني فضلًا عما هيأه لي كيّها من تسلية».

وقال صديق: «أرجو ألا يكون ذلك عن قلة في عدد محال الغسيل والكي في المدينة».

وأجبته: «إن قائمة حساب الكي كبيرة مرهقة إذ تكاد تبلغ تكاليف غسل الياقة وكيها ثمن شرائها. ثم هناك بعد ذلك اعتمادك على الكواء. إنني أفضل بكثير أن أتولى ذلك بنفسي».

وبنفس الطريقة التي تحررت بها من رق الكواء استطعت أن أتخلص كذلك من اعتمادي على الحلاق. إن كل من يذهب إلى إنكلترا يتعلم فن حلاقة ذقنه بنفسه، ولكني لا أعلم عن أحد تعلم فيها فن حلاقة شعر رأسه. ومع ذلك فقد كان عليَّ أن أتعلم ذلك الآن. فقد ذهبت مرة إلى حلاق إنكليزي في بريتوريا فرفض بإباء

أن يقص شعري، وقد شعرت وقتها بالإهانة بلا شك، ولكني ذهبت من فوري فاشتريت مجزًا وأخذت أقص شعري أمام المرآة. وقد نجحت إلى حد ما في قص الجزء الأمامي، أما الجزء الخلفي فقد شوهته تشويهًا. فلما أبصرني أصدقائي في المحكمة على هذا الحال ضحكوا حتى كادوا يموتون من شدة الضحك.

- «ماذا دها شعرك يا غاندي؟ هل عبثت به الفئران؟»
- «لا وإنما الحلاق الأبيض أبى أن يتنازل فيلمس شعري الأسود ولهذا فضلت أن أقصه بنفسي مهما شوهته في سبيل ذلك».

ولم يُدهش أصدقائي لهذا الرد.

والواقع أن الحلاق لم يكن مُخطئًا حين رفض أن يقص شعري. فلو أنه خدم زبونًا أسود لفقد زبائنه البيض. إننا في الهند لا نسمح لحلاقينا بأن يقصوا شعر إخواننا «المنبوذين»، وها آنذا قد نلت جزائي على ذلك وأنا في جنوب أفريقيا، لا مرة واحدة بل مرات ومرات. نعم لقد كان إيماني بأن ما لاقيته على يد هذا الحلاق إنما هو جزاء وفاقٍ على ما نقترفه نحن في الهند، وذلك هو السبب في أنني لم أثر ولم أغضب وقتها.

محبة كل الناس

يقول غاندي: تضافرت حوادث مختلفة، وقعت لي في حياتي، على تقريب الصلات بيني وبين أناس من مختلف العقائد والأجناس، حتى ليحق لي من تجاربي معهم أن أقول إني لم أعرف التميز بين قريب وغريب، بين مواطن وأجنبي، بين أبيض وأسود، بين هندوس وهنود من أصحاب المذاهب الأخرى، سواء أكانوا مسلمين أم مجوسًا، مسيحيين أم يهودًا. بل إني

لأذهب إلى حد القول بأن نفسي كانت تعجز عن مثل هذا التمييز، وإن كنت لا أزعم لنفسي فضلًا في ذلك، فقد كان الأمر جزءًا من طبيعتي.

من ذلك أن كتبة مكتبي، حين كنت أمارس عملي في المحاماة في دربان، كثيرًا ما كانوا يجلسون معي. كان فيهم الهندوسي والمسيحي، أو لو شِئنا أن نميزهم حسب موطنهم في الهند كان فيهم الجوجيراتي والتاميلي، ولست أذكر مرة واحدة أنني عاملتهم إلا على أنهم أهلي وبنو جلدتي. بل لقد كنت أعاملهم على أنهم بعض أفراد أسرتي، وأخاصم زوجتي لو أنها حاولت أن تحول بيني وبين معاملتهم على هذا الوصف، وكان أحدهم مسيحيًا من أبوين ينتميان إلى ما يسمونه طبقة «المنبوذين».

كان بيتي مبنيًا على الطراز الغربي، فلم تكن في حجراته منافذ لتصريف الماء القذر، ومن ثم فقد كان في كل حجرة من حجراته وعاء خاص لهذا الغرض. فكنت أنا وزوجتي نتولى تنظيف أوعيتنا بنفسينا بدلًا من أن نعهد بذلك إلى خادم أو كناس. وكان كتبة مكتبي الذين نزلوا أهلًا على بيتنا يعتبرون أنفسهم من أصحاب الدار فكان طبيعيًا أن يقوموا هم كذلك بتنظيف أوعيتهم بأنفسهم. أما الكاتب المسيحي الذي أشرت إليه، فقد كان حديث عهد بنا، فكان من واجبنا أن نعتني بأمر حجرة نومه بأنفسنا. غير أن زوجتي استكثرت على نفسها أن تقوم بتنظيف وعاء من كان منبوذًا فقد كان ذلك في نظرها أكثر مما يمكن أن تحتمل. وتشاجرنا أنا وهي، فقد كانت لا تقبل أن تراني أتولى تنظيف وعائه، ولا هي في الوقت عينه تحب أن تتولى ذلك بنفسها وما زلت إلى يومنا هذا أذكر منظرها وهي

تؤنبني، وقد احمرت عيناها من الغضب، وتساقطت الدموع على خديها، وهي تنزل السلم والوعاء في يديها، لقد كنت زوجًا قاسيًا ولكن في شفقة وحنان. كنت أعد نفسي معلمها، فكنت أقسو عليها حبًا مني بها.

ولم أقنع بأن أراها تحمل الوعاء لمجرد أن تطيع رغبتي. لقد كنت أريد أن أراها تفعل ذلك بنفس راضية. قلت لها وأنا أرفع صوتي: «إني لن أقبل مثل هذا العبث في بيتي». ونفذت تلك الكلمات إلى قلبها كما ينفذ السهم.

وصرخت فيَّ تقول: «أبقِ عليك بيتك ودعني أخرج منه». وأنساني الشيطان نفسي، فنضب معين الرحمة من قلبي هنيهة، وأمسكت بها من يدها وسحبت تلك المرأة المسكينة إلى باب المنزل، وكان يقع في مواجهة السلم، ثم شرعت أفتحه وفي نيتي أن ألقي بها منه، فكانت الدموع تنهمر من عينيها وهي تقول: «ألا تخجل من نفسك؟ هل لا بد أن تنسى نفسك إلى هذا الحد؟ وإلى أين أذهب؟ إني لا أهل لي ولا أقارب هنا أذهب إليهم، أو تظن أن من واجبي أن احتمل وكزك وركلك لا لشيء سوى أنني زوجتك؟ أستحلفك أن تكون خيرًا من ذلك مسلكًا. أقفل هذا الباب ولا تدع الناس يرونا ونحن على هذا الوضع المشين».

وحاولت أن ألبس قناعًا من الشجاعة وإن كنت شعرت في قرارة نفسي بخزي شديد، وأقفلت الباب، فإذا كانت زوجتي لا تستطيع أن تتركني فقد كنت كذلك لا أستطيع أن أتركها. لقد كنا كثيرًا ما نتشاجر، ولكن شجارنا كان ينتهي دائمًا إلى سلام، وإن كانت الزوجة، بما تبديه من قدرة على الاحتمال، هي التي تنتصر دائمًا.

إنني اليوم في وضع يسمح لي بأن أقص هذا الحادث من غير تكلف أو تحفظ، فهو ينتمي إلى فترة قد ودعتها إلى الأبد بعد كوني لم أعد الزوج المفتتن بزوجته، ولا البعل الذي نصب نفسه معلمًا لها. إن في استطاعة كاستورباي اليوم أن تسيء إلى بقدر ما كنت أسيء إليها في تلك الأيام من دون أن يؤثر ذلك في علاقتنا شيئًا، فقد أصبحنا صديقين لا تفصم صداقتنا الأحداث ولا يعتبر أحدنا الآخر مثار شهوة جنسية له.

تطهير أنفسنا أولًا

يقول غاندي في مذكراته: كنت أكره دائمًا أن أتستر على سوءات مواطني، أو أطالب بحقوقهم إلا إذا تطهروا منها، ومن ثم فقد ظللت، منذ أن استقر بيَ المقام في ناتال، أعمل على إبرائهم من أدران وصمة التصقت بهم فكانوا كثيرًا ما يُعيرون بها، ولم تكن هذه الوصمة خالية من قدر من الصدق، فقد شاع عنهم أن الهنود غير نظيفين في عاداتهم، قليلو العناية ببيوتهم، عديمو الاكتراث بما يحيط بهم. على أن أعيان الجالية الهندية كانوا مع ذلك، قد أخذوا يعنون بشؤون بيوتهم، ويرعون النواحي الصحية في حياتهم.

ولم يحدث أن فُتشت بيوت الهنود، بيتًا بيتًا، إلا عندما جاءت التقارير تنبأ باحتمال تفشي الطاعون في دربان. ومع ذلك فلم يجرِ هذا التفتيش إلا بعد استئذان مشايخ المدينة وموافقتهم على ذلك، بعد أن أبدوا رغبتهم في تعاوننا معهم على مقاومة هذا الوباء، فكان لتعاوننا معهم أثره الطيب، إذ سهل عليهم عملهم بقدر ما قلل من حرجنا.

وبينما عملية التفتيش تجري في طريقها وقعت لي تجارب مريرة تبين لي منها أنني لم أكن أستطيع أن أعتمد على معاونة

الجالية الهندية وأنا أحاول حملها على أداء واجبها نحو نفسها بالقدر الذي كنت أستطيع أن اعتمد عليها فيه وأنا أطالب بحقوقها. فقد كنت في بعض هذه البيوت أُقابل بالشتم والسباب، وبفتور مهذب في بعضها الآخر. فقد كان أصحابها يستكثرون علينا أن نطالبهم بأن يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف بيوتهم. أضف إلى ذلك ناحية النفقات التي تتطلبها العناية ببيوتهم. إذ أين لهم بالمال الذي يقتضيه ذلك؟

وقد علمتني هذه التجربة الآن، أكثر من أي وقت مضى، أنه لا سبيل لك إلى حمل جماعات الناس على عمل شيء تريده إلا بكثير من الصبر والأناة. المصلح هو الذي يتحمس للإصلاح، لا المجتمع الذي يُراد إصلاحه. لذلك كان على المصلح ألا ينتظر، وهو في سبيل الدعوة إلى الإصلاح، غير المعارضة والكراهية، والاضطهاد المميت في بعض الأحيان.

ولست أدري وأيمُ الحق لما ينظر المجتمع إلى دعوة الإصلاح على أنها رجوع به إلى الوراء؟

وأيًا كان الأمر، فقد كان لهذه التجربة أثرها في حياة الجالية الهندية، إذ علمتها ضرورة المحافظة على نظافة بيوتها ورعاية شؤون بيئتها. أما أنا فقد خرجت من كل ذلك بمزيد من تقدير السلطات، إذ أصبحت ترى أنني وإن كنت قد كرست جهودي لرفع مظالم الهنود والمطالبة بحقوقهم المهدرة، لم أكن أقل تحمسًا في دعوتي إلى تطهير أنفسنا من جميع الأدران والشوائب.

غاندي يرفض الهدايا

يحكي غاندي: أحسست بعد أن أُعفيت من واجباتي في حرب البوير، بأن مكاني الصحيح لم يعد في جنوب أفريقيا بل

هو في الهند. فقد كان أصدقائي فيها لا ينفكون يلحون عليَّ بالعودة إلى الوطن، وكنت من ناحيتي أحس كذلك بأنني أكون أكثر نفعًا وأنا في الهند. ومن ثم فقد رجوت زملائي في الجهاد أن يعفوني من البقاء في جنوب أفريقيا فاستجابوا لرجائي بعد مشقة كبيرة، وبشرط أن أتعهد لهم بالعودة مرة أخرى إذا أحست الجالية الهندية بأنها في حاجة إليَّ.

وعُقدت الاجتماعات لتوديعي في كل مكان وقُدمت لي هدايا قيمة، كان من بينها بطبيعة الحال أشياء من الذهب والفضة إلى جانب بعض الحُلي الثمينة من الماس.

ولكن بأي حق كان يمكن أن أتقبل مثل هذه الهدايا؟ وإذا أنا تقبلتها فكيف أستطيع أن أقنع نفسي بأنني كنت أخدم الطائفة من غير مقابل؟ فمما لا شك فيه أن جميع هذه الهدايا، باستثناء قلة قدمها لي بعض موكلي، كانت من أجل ما قدمته للجالية الهندية من خدمات، بل لم أستطع حتى أن أفرط في ذلك بين موكلي وبين زميل في الكفاح، فقد كان موكلي من بين الزملاء الذين تعاونوا معي على هذه الخدمات.

وكان من بين هذه الهدايا عقد من الذهب يساوي خمسين جنيهًا كان المفروض من إهدائه لي أن يكون من نصيب زوجتي، ولكن حتى هذا العقد لم يعط لها إلا بسبب خدماتي للجالية، إذن فما كان لي سبيل إلا التفريق بين نظرتي إلى هذا العقد، ونظرتي إلى سائر الهدايا.

وانتابني أرق شديد طيلة الليلة التي قُدم ليَ فيها القسط الأكبر من تلك الهدايا، فجعلت أمشي في حجرتي جيئة وذهابًا، قلق النفس سقيم الفؤاد، أفكر في ما يجب عليَّ أن أفعله فلا أهتدي إلى

حل. فقد كان من الصعب عليَ أن أتنازل عن هدايا تبلغ قيمتها بضع مئات من الجنيهات، وكان أصعب منه أن أحتفظ بها. وحتى لو استطعت أن أحتفظ بتلك الهدايا فماذا عساه أن يكون حال أولادي، وحال زوجتي؟ وهم الذين كانوا يعدون أنفسهم لحياة تقوم على خدمة الناس وترى في العمل الطيب نفسه الجزاء الأوفى.

لقد كان بيتي خلوًا من زخرف الحياة، وكانت حياتنا تزداد بساطة على بساطتها. فكيف بنا الآن وقد أصبح لدينا ساعات من الذهب؟ كيف بنا إذا ازدانت صدورنا بسلاسل من الذهب وأصابعنا بخواتم من الماس؟ لقد كنت، حتى في ذلك الوقت، أدعو الناس إلى التغلب على شهوة الحُلي والجواهر، فماذا عساي أفعل الآن بهذه الحُلي والجواهر التي هبطت علينا؟

واستقر رأيي في النهاية على أننا لا يمكن أن نحتفظ بهذه الأشياء، فجلست أكتب خطابًا جعلت فيه تلك الهدايا وديعة تستثمر لصالح الجالية، وأقمت رستم جي الماجوسي وآخرين أوصياء عليها.

وكنت أعرف أنني لا بد مُلاق شيئًا من الصعوبة في إقناع زوجتي، بقدر ما كنت واثقًا من أنني لن ألقى معارضة من جانب أولادي، ولذلك فقد قررت بيني وبين نفسي أن أتخذ منهم عضدًا لي فيما كنت مُقبلًا على عمله، وقد وافقني أولادي على فكرتي عن طيب خاطر وهم يقولون: «إننا لا حاجة لنا بهذه الهدايا الثمينة، ويجب أن نعيدها إلى الجالية، وإذا احتجنا إليها يومًا فيمكننا في هذه الحالة أن نشتريها».

وعدت أسألهم وقد امتلأ قلبي فرحًا بما سمعته منهم: «إذن فأنتم ستعملون على إقناع أمكم، أليس كذلك؟».

وأجابوا: «بكل تأكيد، بل هذا واجبنا، فهي في غير حاجة إلى لبس هذه الحُلي. نعم إنها قد تحب أن تحتفظ بها لنا، ولكن ما دمنا لا نريدها فلم لا توافق على النزول عنها؟».

لكن ما أسهل الكلام! وما أصعب العمل!

فقد قالت لي زوجتي عندما فاتحتها في الأمر: «قد لا تكون أنت في حاجة إلى هذه الحُلي، وقد يكون أولادك كذلك، فإنك لو ضربتهم لرقصوا على وقع الضربات التي تلهب بها ظهورهم، وقد أفهم أنك لا تسمح لي بأن أتحلى بهذه الحُلي، ولكن ما الشأن في زوجات أولادي؟ فهن ولا شك سيحتجن إليها. ثم من ذا الذي يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث في الغد؟ إنني آخر من يتنازل عن هدايا وُهبت لي بدافع من الحب».

ثم ازداد نقاشها عنفًا وحدة، وأخذت تساند حجتها بالدموع. أما الأولاد فقد بقوا على رأيهم لا يتزحزحون عنه.

وقلت لها في رفق: «إن الأولاد لم يتزوجوا بعد، ونحن لا نحب لهم أن يتزوجوا وهم أحداث. أما حين يكبرون فإنهم يستطيعون أن يعنوا بشؤون أنفسهم. ثم نحن من غير شك لا نزوج أولادنا من زوجات يعشقن الحُلي، ولنفرض بعد ذلك أنهن كن يردن منا أن نعطيهن حليًا فإنني موجود، وما عليك إلا أن تطلبي مني».

وردت عليَّ تقول: «أطلب منك؟ أظن أنني أعرفك جيدًا الآن. لقد حرمتني من حُليي ولم تدعني أنعم بها في سلام. ثم تصور أنك تعرض عليَّ الآن أن تشتري حليًا لزوجات أولادك! أنت يا من تريد أن تجعل من أطفالي نُساكًا وهم في هذه السن. لا! إن الحُلي لن تُرد. ثم دعني أسألك: أي حق لك في أن تتصرف في العقد وهو هدية لي؟».

وأجبتها: «وهل أعطيَ هذا العقد لك من أجل خدماتك؟ أم من أجل خدماتي أنا؟».

وردت تقول: «هذا صحيح، ولكن خدماتك ما هي إلا خدماتي. لقد أشقيت نفسي ليلًا ونهارًا حتى أنهكتها من أجلك، أليست هذه كلها خدمات أديتها؟ بل لقد فرضت عليَّ أصدقائك ومن كانوا حولك حتى كنت أبكي وأنا أكدح من أجلهم وأشقى كما يشقى العبيد».

كانت كلماتها قارصة قاطعة نفذت إلى أعماق نفسي ولكني ظللت مع ذلك مُصممًا على رد الحُلي؟ واستطعت في النهاية أن أستدرجها حتى ظفرت بموافقتها، وهكذا أُعيدت الهدايا جميعها لتودع في أحد المصارف بناءً على حجة ائتمان حررتها لهذا الغرض بغية استعمالها في ما يعود على الجالية بالخير وفق رغبتي أو رغبات الأوصياء.

ولم أندم يومًا على أنني اتخذت تلك الخطوة، كما استطاعت زوجتي على مر الأيام أن تتبين الحكمة في ما فعلت. فقد أنقذتنا تلك الخطوة من كثير من عوامل الإغراء.

إن رأيي الذي لا يداخلني فيه شك هو أن الرجل الذي يعمل في خدمة المجتمع لا يجوز له أن يتقبل الهدايا الثمينة.

حذاء غاندي

من القصص المأثورة عن المهاتما غاندي أنه كان يجري للحاق بقطار، وقد بدأ القطار في السير وعند صعوده القطار سقطت إحدى فردتي حذائه. فما كان منه إلا أن أسرع بخلع الفردة الثانية ورماها بجوار الفردة الأولى على سكة القطار!

تعجب أصدقاؤه وسألوه «ما حملك على ما فعلت، لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟».

قال غاندي بكل حكمة «أحببت للفقير الذي يجد الحذاء أن يجد فردتين فيستطيع الانتفاع بهما، فلو وجد فردة واحدة فلن تفيده».

كتاب

يذكر غاندي في مذكراته الموقف التالي:

أعطاني المستر بولاك كتابًا أطالعه في الطريق وقال إنه واثق من أنه سيعجبني. كان كتاب راسكين **(حتى هذه النهاية)**.

ولم يكن هذا الكتاب من النوع الذي يستطيع المرء أن يلقيه جانبًا إذا بدأ يطالعه، بل لقد أخذ بمجامع قلبي. كانت المسافة من جوهانسبرج إلى دربان تستغرق 24 ساعة، فلما بلغتها في المساء لم تغفل عيني تلك الليلة، إذ كنت قد صممت على أن أغير طريقة حياتي حتى توائم المُثل العليا التي قرأتها في ذلك الكتاب.

فلقد رأيت بعض عقائدي التي تكمن في أعماق قلبي وقد انعكست في ذلك الكتاب العظيم، فما أقدر الشاعر البليغ على استخراج الخير الكامل في النفس البشرية من مكمنه، فقد خرجت من هذا الكتاب بثلاث نتائج:

الأولى: أن خير الفرد في خير المجموع.

الثانية: أن عمل المحامي له من القيمة ما لعمل الحلاق تمامًا، من حيث إن كليهما له حق مُماثل لحق الآخر في أن يكسب معاشه من طريق العمل الذي يؤديه.

الثالثة: أن الحياة الكادحة التي تقوم على جهد الفرد، مثال ذلك، حياة الفلاح الذي يعمل في فلاحة أرضه أو الصانع الذي يزاول صناعته، هي وحدها الحياة الجديرة بأن يحياها الإنسان.

وقمت من الفجر مُستعدًا لأن أضع هذه المبادئ موضع تنفيذ.

غاندي ينظف دورات المياه

شارك غاندي عام 1901م في حضور المؤتمر الهندي الوطني في كلكتا بالهند، وهو يقول في مذكراته:

كان إهمال الشؤون الصحية في ذلك المكان بالغًا حده. كانت المياه تضفي على الأرض فتحيلها إلى مستنقعات. كانت دورات المياه محدودة العدد، ولا تزال رائحتها الكريهة تزكم أنفي كلما ذكرتها. فلما لفت نظر المتطوعين إلى ذلك أجابوا في غير مداورة: «هذا ليس من عملنا، بل عمل الكناس»، فلم يسعني إلا أن أطلب من أحدهم أن يأتيني بمكنسة فحملق في وجهي دهشًا، وجئت بها ثم شرعت أنظف دورات المياه. غير أن الازدحام عليها كان شديدًا، بقدر ما كان عددها قليلًا، مما استوجب تنظيفها المرة تلو المرة في اليوم الواحد، فكان ذلك أكثر مما كنت أستطيع أداءه.

شروط الإضراب الناجح

يحكي غاندي قائلًا: وصلني خطاب من السيدة أناسيوبابهن تصف فيه حالة العمال في أحمد آباد وما كانوا يلقونه فيها من شظف العيش، فقد كانت أجورهم ضئيلة وكانوا قد أخذوا يتبرمون بها ويطالبون بزيادتها، ومع أنني كنت راغبًا في معاونتهم

وتوجيههم فقد كنت قليل الثقة في أن أستطيع معالجة مسألتهم. لقد كان موقفي من هذه المسألة غاية في الدقة والحرج، فقد كانت قضية العمال الذين يعملون في مصانع الغزل والنسيج قضية حقهم، ولكن السيدة أناسيويابهن كان عليها، في كفاحها من أجل هؤلاء العمال، أن تكافح ضد أخيها الذي كان يتزعم أصحاب تلك المصانع. أضف إلى ذلك أن علاقتي بأصحاب المصانع كانت علاقة طيبة بما كان يجعل كفاحي ضدهم أكثر حرجًا لي، ومن ثم فقد كانت لي معهم مناقشات رجوت منهم خلالها أن يلجأوا في حل خلافهم مع عمالهم إلى التحكيم، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بهذا المبدأ.

ولم يعد أمامي بعد ذلك إلا أن أشير على العمال بالإضراب عن العمل، ولكني قبل أن أفعل ذلك اتصلت بهم وبزعمائهم، وشرحت لهم الظروف التي يجب توافرها لكي يكون أي إضراب ناجحًا وهي:

(1) عدم الالتجاء إلى العنف إطلاقًا.

(2) عدم الاعتداء على الخارجين على إجماع المُضربين.

(3) عدم الاعتماد على الصدقة والإحسان البتة.

(4) أن يبقى المضربون ثابتين مهما طال أمد الإضراب، وأن يرتزقوا خلال ذلك من أي عمل شريف آخر.

وفهم زعماء حركة الإضراب هذه القواعد ووافقوا عليها، كما تعهد العمال أنفسهم في اجتماع عام عُقد لهذا الغرض بألا يستأنفوا العمل إلا في إحدى حالتين، فإما أن تُقبل شروطهم، وإما أن يوافق أصحاب المصانع على إحالة الخلاف إلى التحكيم.

واستمر الإضراب واحدًا وعشرين يومًا كنت خلالها دائب الاتصال بأصحاب المصانع أحاول أن استحثهم على أن يقسطوا بين أنفسهم وبين عمالهم فكانِ ردهم عليَّ: «ونحن كذلك لنا عهد نرعاه، إن علاقتنا بعمالنا هي علاقة الآباء بأبنائهم... فكيف إذن نسمح لطرف ثالث بأن يتدخل بيننا؟ ثم أين مكان التحكيم من هذا الخلاف؟».

صوت الضمير

غاندي يهتم بأحوال الفلاحين

يقول راجندرا برازاد ـ رئيس جمهورية الهند (1950 ـ 1962م)[1]ـ في كتابه (عند قدمي غاندي): أن غاندي قد راعه ما شهده من فقر قرى الهند وقذارتها، وراعته حالة النساء فيها على نحو أخص. وصرح لرفاقه بأنه ما لم تُحسن أحوال أولئك القوم البائسين وتلك القرى الشقية فلن يكون في ميسور الهند أن تكون سعيدة.

وقد تعرض غاندي لمساءلة قانونية بسبب اهتمامه بأحوال الفلاحين ورفضه حالة الفقر في قرى الهند، وقد رفضت السلطات قيامه بهذا العمل، حيث زار بعض القرى في الأقاليم النائية، واستمع إلى الفلاحين، وعرف شكواهم، وتحدث

---

(1) راجندرا برازاد (Dr. Rajendra Prasad) وتُكتب في العربية أحيانًا راجندرا براساد: تولى رئاسة جمهورية الهند خلال الفترة من 26 كانون الأول/ يناير 1950م إلى 13 أيار/مايو 1962م، وقد عاش في الفترة من سنة 1884م إلى سنة 1963م.

إليهم، واستطاع أن يؤثر في نفوس كثيرين من الناس بما قاله لهم، وبالعمل الذي قام به، والطريقة التي اصطنعها في أدائه.

ولما استدعته السلطات، وقف غاندي أمام القاضي وقال خطابه التالي:

«أودّ، بعد استئذان المحكمة، أن أتلو بيانًا موجزًا يُظهر لماذا قمت بهذه الخطوة البالغة الخطورة التي يتراءى معها أني عصيت الأمر الصادر وفقًا للمادة 144 من قانون الإجراءات الجنائية. ففي رأيي المتواضع أن المسألة مسألة خلاف في الرأي بيني وبين الإدارة المحلية، فقد جئت إلى هذه المنطقة مُعتزمًا أن أسدي خدمة إنسانية ووطنية، وإنما فعلت ذلك استجابةً لدعوة ملحة إلى مد يد العون إلى أولئك الفلاحين الذين أكدَ لي أنهم لا يُعاملون من جانب مزارعي النيلج معاملة عادلة، بيد أنه لم يكن في ميسوري أن أسدي أيما خدمة من غير أن أدرس المشكلة بنفسي، وهكذا أقبلت على دراستها بمساعدة الإدارة الحكومية والمزارعين إذا أمكن، لم يكن ثمة أيما دافع آخر يحدوني إلى ذلك، ولست أستطيع أن أعتقد أن مجيئي يمكن أن يعكر صفو الأمن، بحال من الأحوال، وأن يؤدي إلى خسارة في الأرواح.

أنا أزعم أن لي خبرة واسعة في مثل هذه الأمور. بيد أن الإدارة الحكومية ارتأت خلاف ذلك، وإني لأقدر مصاعبها حق قدرها، وأسلم أيضًا بأنه ليس في استطاعتها إلا العمل على ضوء التعليمات التي تتلقاها، وبوصفي مواطنًا ممتثلًا للقانون فقد كان خليقًا بي أن أسارع، بالغريزة، إلى إطاعة الأمر الذي بُلغتهُ.

ولكني لم يكن في ميسوري أن أفعل ذلك من غير أن أؤذي شعوري بالواجب نحو أولئك الذين جئتُ من أجلهم، وأنا أشعر أني لا أستطيع أن أخدمهم الآن إلا بالبقاء بين ظهرانيهم.

ومن أجل هذا، لا أستطيع أن أنسحب بطوعي، وفي غمرة من هذا التعارض بين واجبين اثنين، قررت أن أُلقي على عاتق الإدارة الحكومية تبعة إبعادي عنهم، وأنا أعي كل الوعي أن الشخص الذي يحتل في حياة الهند العامة مركزًا كالذي أحتله أنا يجب أن يكون دقيقًا جدًّا في ضرب المَثَل للناس، وإني لأعتقد اعتقادًا راسخًا بأن السبيل الوحيد الآمنة والمشرفة، هي أن يعمد الرجل الذي يحترم نفسه ـ في مثل الظروف التي تواجهني ـ إلى القيام بما قمت به أنا، أعني أن يذعن من غير احتجاج لعقوبة العصيان.

«إني لا أقدم هذا البيان التماسًا لأيما تخفيف للعقوبة المفروضة عليَّ ولكن لإظهار هذه الواقعة، وهي أني أهملت الأمر الصادر إليَّ، لا بدافع من عدم احترامي للسلطة القانونية، بل بدافع من خضوعي للقانون الأسمى لوجودي: صوت ضميري».

اهتمامه بالقرى والقرويين

اهتم المهاتماجي (غانديجي أو غاندي جي)[1] على نحو واضح بمسألة تنمية أحوال الفلاحين وقراهم، وقد انتهى خلال مُقامه لفترة من الوقت في مدينة (واردا) إلى هذا الاستنتاج:

(1) Gandhiji: يُضاف المقطع (جي) على اسم العلم في اللغات الهندية دلالة على الاحترام والتشريف والتبجيل.

إذا أردنا إصلاح القرى فمن الجوهري أن نكتسب في القرية نفسها معرفة بمشكلات القرويين ومطالبهم، ابتغاء البحث عن طرائق وأساليب لحلها وتلبيتها. بيد أن هذه المعرفة لا يمكن أن تُكتَسَب إلا إذا عاش المرء بين الفلاحين وأحبهم، وشاركهم تجاربهم، ولم يجعل من نفسه عبئًا على أبناء القرية بالعيش في رفه وترف على حسابهم. إن من واجبه على عكس ذلك أن يحيا حياةً تساعدهم على تذليل مصاعبهم وتخفيف الأعباء عن كواهلهم.

بيان

في أحد مراحل جهاد غاندي، تمت إدانته بإثارة الشغب والحث على كراهية الحكومة، فوضع غاندي بيانًا طويلًا، في مدينة أحمد آباد، قال فيه:

«لعل من حق الرأي العام الهندي والرأي العام في إنكلترا، اللذين أُقيمت هذه الدعوى قبل كل شيء لتهدئتهما، أن أشرح لهما لماذا انقلبت من مُوالٍ ومتعاون مخلص إلى مبغض ولا تعاوني صلب.

كذلك يتعين عليَّ أن أبسط للمحكمة لماذا أرتضي تهمة العمل على إشاعة روح الكراهية للحكومة القائمة، بحكم القانون، في الهند، وأعتبر نفسي من أجل ذلك مذنبًا.

«لقد بدأت حياتي العامة عام 1893 في جنوب أفريقيا، في جو مضطرب. ولم يكن أول اتصال لي بالسلطة البريطانية في تلك البلاد ذا صفة سارة. لقد اكتشفتُ أني، بوصفي إنسانًا وبوصفي هنديًا، لا حقوق لي البتة. على العكس، لقد اكتشفت أنه لا حقوق لي ـ بوصفي إنسانًا ـ لمجرد إني هندي.

«ولكن ذلك لم يفت في عضدي. لقد بدا لي أن معاملة الهنود هذه كانت وربمًا غير سوي في جسم نظام هو، جوهريًا وفي الأعم الأغلب، نظام صالح. لقد منحتُ الحكومة تعاوني الطوعي القلبي، منتقدًا إياها انتقادًا صريحًا كلما شعرتُ أنها مخطئة، ولكني لم أرغب في يوم من الأيام في تحطيمها.

«وهكذا ما إن تعرض وجود الإمبراطورية للخطر، عام 1890، بسبب من تحدي (البوير)[1] لها، حتى قدمتُ خدماتي إليها، وأنشأتُ فرقة إسعاف متطوعة، وأسهمت في كثير من المعارك الصغيرة التي شُنت لإنقاذ مدينة ليدي سمث.

وفي عام 1906 أيضًا، عندما نشبت ثورة (الزولو)، أنشأتُ فرقة لحملة نقالات الجرحى، وقدمتُ خدماتي إلى الحكومة حتى اليوم الذي تم فيه القضاء على الثورة.

وفي كلتا المناسبتين مُنحتُ بعض الميداليات، بل لقد ذُكر اسمي في التقارير العسكرية تقديرًا لخدماتي. ومكافأة لي على عملي في جنوب أفريقيا منحني اللورد هاردينج مدالية (كايزر - إي - هند) الذهبية. وعندما اندلعت الحرب عام 1914 بين إنكلترا وألمانيا أنشأتُ في لندن فرقة إسعاف متطوعة مؤلفة من الهنود المقيمين آنذاك في العاصمة الإنكليزية، وكثرتهم الكبيرة من الطلاب. ولقد اعترفت السلطات، بكثير من التقدير، بأن نشاط تلك الفرقة كان مفيدًا. وأخيرًا، هنا في الهند، عندما وجه اللورد تشيلمزفورد في مؤتمر الحرب في دلهي نداءً خاصًا دعا فيه الهنود إلى الالتحاق بالقوات المسلحة ناضلتُ، على حساب

---

(1) خلال الفترة من 1899 إلى 1902م.

صحتي، من أجل تأليف فرقة عسكرية في إقليم (خيدا)، ولم يكد الناس يستجيبون لدعوتي حتى وضعت الحرب أوزارها، وصدرت الأوامر بالتوقف عن التجنيد لعدم الحاجة إلى قوات جديدة.

وفي جميع جهودي هذه في حقل الخدمة العامة كان يحفزني الاعتقاد بأن هذه الخدمات خليق بها أن تُكسب أبناء وطني وضعًا في الإمبراطورية قائمًا على أساس من المساواة الكاملة.

«وجاءتني الصدمة الأولى متمثلة في قانون رولات «Rowlat Act» وهو قانون قُصد به سلب الشعب كل أثر من آثار الحرية الحقيقية. واستشعرت أني مدعو لقيادة حملة عنيفة ضده. وبعد ذلك وقعت مآسي البنجاب[1] الراعبة، التي استُهلَت بمجزرة جاليانوالا باغ[2]، والتي بلغت أوجها في أوامر الزحف على البطون، والجلد على مرأى من الجماهير، وغير ذلك من ضروب الإذلال التي تمتنع على الوصف.

---

(1) البنجاب «Punjab» إقليم شاسع يشمل الجزء الشمالي الشرقي من الباكستان والجزء الشمالي الغربي من الهند، ويمتد عمومًا بين نهر السند غربًا في الباكستان، ونهر جومنا (يامونا) شرقًا في الهند، ويمتد شمالًا حتى جبال هيمالايا والجبال المتفرعة عنها وجنوبًا إلى صحراء ثار Thar والصحارى الأخرى في السند وبلوجستان. فالبنجاب أرض مقسمة بين دولتي الباكستان والهند، ومساحة الإقليم العامة (257723 كم^2)، منها (207420 كم^2) في الباكستان والباقي (50303 كم^2) في الهند.

(2) مجزرة جاليانوالا باغ: في 13 نيسان/ أبريل 1919م قامت القوات البريطانية بقتل مئات المتظاهرين السيخ خلال تجمع للاحتجاج على اضطهاد الهنود في مدينة أمريتسار في الهند وجرحت أكثر من 1200 آخرين. وهو ما عُرف بمجزرة جاليانوالا باغ.

واكتشفت أيضًا، أن العهد الذي قطعه رئيس الوزراء لمسلمي الهند في موضوع الحفاظ على وحدة الأراضي التركية والأماكن الإسلامية المقدسة وعدم تجزئتها كان في أغلب الظن مستبعد التحقيق.

«ولكن على الرغم من تحذيرات الأصدقاء الخطيرة، المنذرة بالشر، في مؤتمر آمريتسار عام 1919 ناضلت من أجل التعاون ومن أجل إقناع الأعضاء بقبول إصلاحات مونتاغو ـ تشيلمزفورد، رجاة أن يفي رئيس الوزارة بوعده لمسلمي الهند، وأن تضمَد جراح البنجاب، وأن تفتح تلك الإصلاحات، وعلى الرغم من مواطن النقص والضعف فيها، عهدًا جديدًا من الأمل في حياة الهند.

«ولكن ذلك الأمل كله ما لبث أن تحطم، فالوعد الخاص بالخلافة لم يُنفذ، وجريمة البنجاب بُرِّئ المسؤولون عنها، وجماهير الهنود نصف الجائعة تتخذ سبيلها شيئًا فشيئًا نحو اللاحياة.

إنهم لا يكادون يعرفون أن راحتهم البائسة تمثل (السمسرة) التي ينالونها مقابل الأعمال التي يؤدونها للمستغل الأجنبي، وأن الأرباح والسمسرات تُمتَص من جماهير الشعب، وأنهم لا يكادون يدركون أن الحكومة القائمة باسم القانون في الهند البريطانية إنما أُقيمت لاستغلال الجماهير هذه. وليس في ميسور أيما سفسطة وأيما خداع في الأرقام أن يردا البيّنة الصارخة التي تقدمها الهياكل العظيمة للعين المجردة في كثير من القرى، وليس يساورني ذرة من الشك في أن إنكلترا من ناحية وسكان المدن في الهند من ناحية سوف يُعاقبان ـ إذا كان في الأعالي إله ـ على

هذه الجريمة التي اقترفاها ضد الإنسانية والتي ربما عز نظيرها في التاريخ، والقانون نفسه قد اصطُنع في هذه البلاد لخدمة المستغل الأجنبي، والحق أن دراستي النزيهة لدعاوى الأحكام العرفية في البنجاب قد قادتني إلى الاعتقاد بأن خمسة وتسعين بالمئة، على الأقل، من الأحكام التي أصدرها القضاة كانت فاسدة فسادًا تامًا. وأن خبرتي الخاصة بالدعاوى السياسية في الهند تقودني إلى أن أستنتج أن تسعة من كل عشرة من الرجال الذين أدانتهم المحاكم الناظرة في تلك الدعاوى كانوا أبرياء براءة كاملة. كانت جريمتهم هي حب وطنهم. وفي تسعة وتسعين حالة من كل مئة أُنكرت العدالة على الهنود ولم يُنصفوا من خصومهم الأوروبيين أمام محاكم الهند.

وهذه صورة دقيقة لا غلو فيها، ولقد اختبر صدقها كل هندي كانت له صلة ما بهذه الدعاوى تقريبًا، والذي أراه أن حرمة القانون إنما تُنتهك على هذا النحو، انتهاكًا واعيًا أو غير واع، لمصلحة المستغل (الأجنبي).

«والبلية العظمى هي أن الإنكليز وأعوانهم الهنود في إدارة البلاد لا يعرفون أنهم شركاء في الجريمة التي حاولت أن أصفها. وأنا مقتنع بأن كثيرًا من الموظفين الإنكليز والهنود يعتقدون، مُخلصين، أنهم يتولون إدارة نظام من أحسن الأنظمة التي ابتدعها العقل البشرى، وأن الهند تحرز في ظل ذلك النظام تقدمًا قد يكون بطيئًا ولكنه مطرد، إنهم لا يعلمون أن نظامًا خفيًا ـ ولكنه فعال ـ من الطغيان والتباهي بالقوة تباهيًا منظمًا، من ناحية، وحرمان الناس من جميع قوى الانتقام أو الدفاع عن النفس من ناحية، قد أخملا الشعب وعوداه تلك العادة التي

ضاعفت جهلَ الحاكمين وخداعهم الذاتي، والمادة (124- أ) التي يسعدني أن أُتهم بموجبها، قد تكون هي الأميرة بين المواد السياسية في قانون العقوبات الهندي، تلك المواد التي قُصد بها إلى كبت حرية المواطنين. فالمحبة لا يمكن أن تُصْنع أو تنظم بقانون. وإذا كان المرء لا يحب شخصًا من الأشخاص أو شيئًا من الأشياء فينبغي أن يكون حرًّا في أن يعبر أكمل التعبير عن عدم حبه، ما دام لا يفكر في اصطناع العنف أو يروج لاصطناعه أو يغري الناس به.

ولكن المادة التي اُتهمت أنا ومستر بانكر بموجبها هي تلك التي يُعتبر فيها مجرد الترويج لعدم الحب جريمةً، لقد درستُ بعض الدعاوى التي أُقيمت بموجبها، وأنا أعلم أن فريقًا من وطنيي الهند الأكثر شعبية قد أُدينوا على أساسٍ منها، ومن هنا فإني أعتبر إدانتي بموجب تلك المادة تشريفًا لي.

لقد حاولت أن أبسط، بأكثر ما أستطيع من الإيجاز، أسباب بغضي وكراهيتي، وإني لا أضمر أيما حقد شخصي على أيما رجل مفرد من رجال الحكومة، فطبيعي أن لا أكن أيما كراهية لشخص الملك، ولكني أؤمن بأن من الفضيلة أن أبغض حكومةً آذت ـ وفي مجموعها ـ الديار الهندية بأكثر مما آذاها أي عهدٍ سابق، إن الهند هي أقل رجوليةً، في ظل البريطانيين، مما كانت في جميع الأدوار السالفة، وإذ كنت مقتنعًا بهذا الرأي فإني أعتبر حب ذلك النظام رذيلة من الرذائل. ولقد كان امتيازًا عظيمًا لي أن أتمكن من كتابة ما كتبتهُ في المقالات المختلفة التي اتُخذت بينات ضدي.

«أنا أعتقد، في الواقع، أني أسديت خدمة إلى الهند وبريطانيا بإظهاري، من طريق اللاتعاون، الطريقة المُفضية بنا

إلى الخروج من الوضع اللاطبيعي الذي يعيش فيه هذان البلدان، وفي رأيي المتواضع أن اللاتعاون مع الشر واجب بقدر ما هو واجبٌ التعاونُ مع الخير، ولكن في ما مضى، كان اللاتعاون يتخذ عن عمد، صورة العنف لإرهاق المسيء الشرير، في حين إني أنفق غاية الجهد لأظهر لأبناء وطني أن اللاتعاون العنيف لا يؤدي إلا إلى مضاعفة الشر، وأنه لما كان العنف هو السبيل الوحيد إلى تدعيم الشر فإن الوسيلة إلى حرمان الشر دعامتَهُ هي الاستنكاف عن اصطناع العنف. إن اللاعنف ينطوي على قبول طوعي لعقوبة اللاتعاون مع الشر وهكذا فإني ليسرني هنا أن أدعو المحكمة إلى إنزال أقصى العقوبة التي تستطيع إنزالها بي وأنا ارتضي هذه العقوبة القصوى، في ابتهاج، جزاء لي على ما يعتبره القانون جريمة متعمدة وما يتراءى لي أنه أسمى واجب من واجبات المواطن، والسبيل الوحيد أمامكم - وإني أوجه الخطاب إلى القاضي والمستشارين - هي إما أن تستقيلوا من مناصبكم وبذلك تقطعون ما بين أنفسكم وبين الشر إذا كنتم تشعرون أن القانون الذي دُعيتم لتطبيقه هو شر، وإني في الحقيقة بريء، وإما أن تنزلوا بي أقصى العقوبة إذا كنتم تعتقدون أن نظام الحكم والقانون الذي تساعدون على تطبيقه صالحان لهذه البلاد، وإن نشاطي هو، وبالتالي مضر بالمصلحة العامة».

لا تقولوا غير الصدق

استعان المهاتما غاندي بعدد من المتطوعين لمساعدته في جمع بيانات ومعلومات عن أحوال الفلاحين، وكان بعضهم من المحامين.

يقول راجندرا برازاد ـ رئيس جمهورية الهند ـ في كتابه **(عند قدمي غاندي)**:

شرعنا ندون، رسميًا، شهادات الفلاحين وبياناتهم. وكان غانديجي قد طبع في أذهاننا أن هذه البيانات قد تكون مُغالى فيها، بل قد تكون ملفقة، وأن علينا ـ باعتبار أننا جميعًا محامون ـ أن نصطنع فطنتنا القضائية فلا ندون بيانات الفلاحين إلا بعد غربلتها.

كما كان غاندي يطلب من الفلاحين أن يعتصموا بهدوء، وألا يقولوا غير الصدق. وكان يؤكد ضرورة الاعتصام باللاعنف لكي لا يحدث أيما شغَب أو إخلال بالأمن.

طرد الخوف من رجال الشرطة

سمحت السلطات لغاندي ومعاونيه بجمع البيانات الخاصة بأحوال الفلاحين، مع مراقبة السلطات لعملهم، فكان أحد مفتشي الشرطة يتابعهم طوال النهار.

وحدث أن تضايق بابو دارنيدهار، أحد معاوني غاندي، واستشاط غضبًا من وجود الشرطي. ثم إن مفتش الشرطة المساعد شكا أمره إلى غاندي، فقام غاندي باستدعاء بابو دارنيدهار ومعاونيه الآخرين، وسألهم أن يوضّحوا له حقيقة المسألة.

أخبره بابو دارنيدهار بكل ما حدث، فسأله غانديجي: «أكنت وحدك أم كان على مقربة منك أناس آخرون؟»، أجابه بابو دارنيدهار بقوله إنه كان مُحاطًا بعدد من الفلاحين.

فسأله غانديجي: «لماذا، إذن، ضقتَ ذرعًا بوجود المفتش المساعد؟»، فقال بابو دارنيدهار إن وجود المفتش المساعد كان

يعوقه عن أداء عمله، وعندئذ قال غانديجي: «إن وجود الفلاحين من حولك لم يَعُقْ عملك، ولكن وجود هذا الرجل قد عاقه، وهذا يعني أن مرد ذلك إلى صفة الرجل، إلى كونه شرطيًا. لماذا ميَّزتَ بينه وبين غيره من الناس؟ لماذا لم تعامله كما عاملتَ الفلاحين؟ يبدو لي أن خوف الشرطة يساور فؤادك. يجب أن تطرد هذا الخوف. إننا لا نأتي أي عمل منكر، ولا نقوم بأي نشاط في السر. فأي اعتراض لك، إذن، على وجود هذا الشرطي؟ إن علينا أن نطرد هذا الخوف من قلوب الفلاحين أيضًا ـ إن عليهم أن يدلوا، بشجاعة وبغير ما خوف، بأيما بيان يرغبون في الإدلاء به، في حضرة الشرطة والمحافظ والمزارعين».

تواضع ومقاومة الفروق الطبقية

في إحدى جولاته، رتب غاندي ومعاونوه الإقامة في أحد المنازل، وقال مرافقوه له إنهم قضوا وقتًا طويلًا في تنظيف المنزل وإنه من الممكن الانتقال إلى المنزل الجديد في صباح اليوم التالي، ولكنه رفض تلك الفكرة وقال لهم:

«هذا خطأ ـ لأننا حين نتخذ قرارًا بعمل شيء ما، يتعين علينا أن نبادر إلى تنفيذه في الحال. يجب أن لا ننسخ ذاك القرار، وأيًا ما كان، فهل تجدون تنظيف المنزل عسيرًا؟ ألا نستطيع أن ننظف بأيدينا مكانًا اعتزمنا أن نتخذ منه بيتًا لنا؟ إذا كان الآخرون لا يستطيعون تنظيفه فيتعين علينا أن ننظفه بأنفسنا».

وكانت وجهة نظره، أنه على المرء، بمجرد اتخاذه قرارًا ما، أن لا يطرح ذلك القرار أو يُغفله.

ويضيف راجندرا برازاد قائلًا:

لم يكن لدى غانديجي غير أمتعة قليلة جدًّا، وكان عنده مُفْتَرَش يحتوي على جميع ملابسه أيضًا، وكان ذلك المفترش لا يُنْشَر إلا ليلًا حين يأوي للنوم، ثم يُطوى على شكل صُرةٍ أنيقة عندما ينهض من نومه صباحًا. وهكذا كان أبدًا على استعداد للانتقال في كل لحظة من منزل إلى آخر..

كانت نمطية حياتنا اليومية شاقة صارمة. كان من دأب المهاتماجي أن يفيق كل صباح في ساعة مبكرة جدًّا، ولم يكن في تلك الأيام يؤدي الصلوات الجامعة ـ ولعله كان يؤدي فريضة الصلاة بينه وبين نفسه، وفي بادئ الأمر كان طعامه يتألف، طوال فترة ما، من الفول السوداني والتمر، وكان يتناول ثمر المانغو، أيضًا، كلما تيسر له ذلك.

أما الحبوب على اختلافها فقد اجتنبها برهةً، وكان غانديجي يباشر جميع الأعمال بنفسه. حتى ثيابه كان يغسلها بنفسه بعد كل حمَام يأخذه، وكان ينفق نهاره كله في القراءة والكتابة، وفي الاجتماع إلى الفلاحين، وفي الاجتماع ـ عند الحاجة ـ برجال الحكومة أيضًا.

ومع الوقت أصبح ضروريًا البحث عن طاهٍ برهمي. فقال المهاتماجي لمن معه: إن تمسكنا بالقيود الطبقية سوف يعترض سبيل عملنا، لأن كلًّا منا سوف يستقل بمطبخ خاص، مما يؤدي آخر الأمر إلى مضاعفة نفقات العمل ليس إلّا، ومن هنا فإن علينا أن نطرح تلك الفكرة، لقد تساءل: «ما دمنا منهمكين كلنا في أداء مهمة واحدة فلماذا لا نعتبر أنفسنا أبناء طبقة اجتماعية واحدة؟»، وهكذا أقنعنا بإطراح تلك القيود الطبقية، ما دمنا في موتيهاري على الأقل.

وكان في ميسور واحد منا أن يطهو، وكان في ميسورنا كلنا أن نأكل ما أُعد لنا من طعام. تلك كانت أول مرة تناولت فيها طعامًا طهَتْهُ يدا رجل ينتمي إلى طبقة اجتماعية مغايرة.

وقال غاندي: «إنه مما لا يليق بنا، نحن الذين نرغب في خدمة الشعب، أن نتخذ لأنفسنا خدمًا». وتساءل: «ما الذي يحول بينكم وبين الاعتماد على أنفسكم؟»، وهكذا صَرفْنا جميع الخدم، ما عدا واحدًا. وحتى ذلك الواحد نفسه لم نحتفظ به إلا لتنظيف الآنية وغسلها. وما هي إلا فترة يسيرة حتى أَلِفْنا كلنا أداء عملنا بأنفسنا.

البساطة والحكمة

كان غانديجي قد نظَف المراحيض بيديه الاثنتين في جنوب أفريقيا. ولكنه في تشامباران، بالهند، لم يكلف معاونيه القيام بهذه المهمة، ذلك بأن المهاتماجي كان يعلم أن في إمكان المرء أن يثني الغصن الأخضر شيئًا فشيئًا حتى يتخذ شكلًا معينًا، ولكنه قد يكسر ذلك الغصن إذا ما غالى ـ عند تقويمه ـ في اصطناع القوة. ذلك كان هو السبب الذي من أجله لم يضع أمام معاونيه، في تشامباران، برنامجه الكامل، مكتفيًا بتكليفهم القيام بمجرد ذلك القَدْر التي حَسبَهُ ضروريًا أو فرضًا تقتضيه موجبات الوضع.

أمانة الوسيلة

يقول راجندرا برازاد:

ذات مرة قدم إلينا أحد موظفي الحكومة، على نحو سري، نسخة عن تقرير كان قد رفعه إلى الحكومة. فحملنا التقرير إلى غانديجي. بيد أنه عرف، قبل أن يقرأه، كيف فزنا به. فما كان

منه إلا أن أبى الاطلاع عليه، ورغب إلينا في إعادته إلى الموظف الحكومي، قائلًا إنه لا ينبغي لنا أن نفيد من أية ورقة تقدم إلينا في السر.

تلك كانت هي الطريقة التي علَّمنا بها الصدق في العمل.. إن أيما عمل يُعمل خلسةً أو على نحو خفي هو صنْوُ الخداع إن لم يكن الخداع نفسه.

وقال غاندي لمن حوله: «لما كانت الحكومة تعتزم تزويدنا بهذه الوثائق بعد قليل فإن من الإثم الذي لا ضرورة له أن نطَّلع عليها في ذلك الحين. وعلى أية حال، وحتى لو كانت الحكومة لا تعتزم تزويدنا بتلك الوثائق، فليس من اللائق بنا أن نطَّلع عليها بطريقة خفية سرية».

التزام الحقيقة

كان غانديجي يرى أن الوسائل الخاطئة خاطئة دائمًا لأنها لا تؤدي إلى تحقيق الهدف أبدًا، وأنه حتى لو بدا لنا، في تلك الحال، وكأننا أحرزنا ما نبتغيه من نصر فإن ذلك يكون هو تحقيق الهدف، لأن اختيار الوسيلة نفسه قمينٌ بأن يغير صفة الغاية وطبيعتها.

ومن أجل هذا كان يصر على ضرورة التزام الحقيقة واللاعنف في جميع المناسبات وفي جميع الأوقات.

التوفير

كان المهاتما غاندي حذرًا جدًّا في إنفاق الأموال العامة، إلى حد أنه كان يحاول توفير كل فلس يقدر على توفيره، ليس من باب البخل وإنما من منطلق الحرص على المال العام.

يقول راجندرا برازاد:

لاحظنا أنه كان يؤثر كتابة الرسائل على بطاقات بريدية كلما استطاع الاستغناء عن الورقة والظرف، فقد كان يكره التبذير إلى حد جعله لا يهدر أيما قطعة من الورق مهما صغُرتْ، وقد يجهل الجمهور ذلك، ولكن كثيرًا من أقوى مقالاته ومعظم مشروعات القرارات المهمة التي قدمها إلى (المؤتمر) وغيره من المنظمات التي تعاون معها إنما كُتبت مسوداتها على قصاصات من ورق كان خليقًا بغيره من الناس أن يطرحوها في سلة المهملات.

كان يصطنع باطن الظروف البريدية وجوانب البرقيات الخالية من الكتابة لأداء هذه الأغراض. لقد شهدته يفعل ذلك في تشامباران، ولقد شهدته يفعل الشيء نفسه منذ ذلك الحين على نحو متواصل. وهكذا علَمنَا المحافظة على الأموال العامة.

التربية والنظافة وحفظ الصحة

كانت صلات غانديجي مع المزارعين جد ودية، وحين حُلت مشكلة الفلاحين أبدى رغبته في الانصراف إلى العناية بأمر التربية، والنظافة، وحفظ الصحة في القرى، وسُر المزارعون بذلك. وعلى الرغم من أن بعض المزارعين حاولوا أن يعوقوا نشاطه شيئًا ما. فإن بعضهم الآخر أعانوه في عمله، وأدرك غانديجي أن ما حققه من نجاح لا يمكن أن يؤتي ثمرات باقية إلا إذا انبثق فجر يقظة حقيقية بين الفلاحين، لقد أحس بأن الفلاحين خليقون، إذا لم ينبثق ذلك الفجر، بأن يصبحوا كرة أخرى ضحية لظلم جديد إن لم يأتهم من جانب المزارعين أتاهم من جانب قوم آخرين.

ومن هنا فإنه فتح ثلاث مدارس وزودها بخدمات جمهرة من المدرسين ذوي البراعة الفائقة. لقد علَموا الأطفال الأبجدية ونظفوا القرى بأنفسهم، وأعطوا النساء دروسًا عملية في المحافظة على نظافة الحمَامات القروية، وبخاصة ما كان منها مجاورًا لآبار القرية. واستهل غانديجي حركة إنهاض اجتماعية في تشامباران ـ وهو برنامج ما لبثت البلاد كلها أن تبنَّته. وكان العاملون في المنطقة يعتزلون الخدمة بعد فترة ما، ليحل محلهم جماعة آخرون.

وحوالي هذه الفترة، كان غانديجي لا يفتأ يقول لمعاونيه إننا نقوم بعمل أصيل من أجل تحقيق الحكم الذاتي. وكان يقول أيضًا إننا إذا ما عملنا بإخلاص وتماسك كسبنا شيئًا سوف تثبت الأيام القادمة أنه ذو قيمة كبيرة في خدمة الوطن.

قيمة الوقت

كان المهاتماجي حريصًا جدًّا على الوفاء بمواعيده بدقة بالغة. كان لا يضيع دقيقة واحدة من وقته هو، أو من وقت الآخرين. فإذا ما حُدد لمقابلة ما ميقاتٌ بعِينهِ، وصل في اللحظة المحددة، وكان يطلب مثل هذه الدقة من الذين يسعون لمقابلته بناءً على موعد.

يقول راجندرا برازاد:

كثيرًا ما خبرتُ ذلك بنفسي. كان كلما تأخرتُ دقيقة أو دقيقتين عن ميقاتٍ ضَرَبه لي يقول لي إني تأخرتُ جدًّا، وإذا ما طلب أحد مقابلتهُ مدة خمس دقائق أجاز له ذلك، ولكن ما أن ينقضي الوقت حتى يقطع المقابلة ويذكره بأن الوقت قد انتهى، وأن في استطاعته أن يعين له موعدًا آخر إذا رغب في مزيد من التحدث إليه.

اللاعنف

أعلن المهاتما غاندي مبدأ الساتياغراها (اللاعنف). وكان يحث الناس على الاعتصام بالشجاعة والتزام اللاعنف حتى تجاه تدابير الحكومة القمعية. لقد سأل كلًا من الحاضرين في جلسة ما أن يأخذ على نفسه عهدًا بالثبات ولو ضربه رجال البوليس، أو صودرت أملاكه، أو اضطر إلى دخول السجن، لقد سألهم أن يطردوا مخاوفهم ونقاط الضعف التي شاهدها فيهم.

وكان الهدف الذي ترمي إليه الساتياغراها هو إحداث انقلاب خير في ذات نفس الخصم من طريق الآلام التي يتحملها المرء والمشاق التي يُعانيها. إن على الساتياغراهي (اللاعنفي) أن يحاول إقناع الخصم بصوابية موقفه لا بالقوة والعنف ولكن بالثبات على الحق. وما لم تَسد هذه الروح أفرادَ الشعب وما لم يفهموا معنى الساتياغراها الحقيقي ويحجموا عن إزعاج الحكومة وإرهاقها وعن اللجوء إلى العنف، فإن حركة الساتياغراها لن يتم لها الزخم الضروري، ولن ترسخ جذورها في الأرض.

احترام الرأي الآخر

يُذكر أن المهاتما غاندي كان ـ برغم إصراره الشديد على آرائه الشخصية ـ بالغ الحرص على احترام وجهات نظر الآخرين والاستماع للرأي الآخر المختلف معه.

فقد كان المهاتما غاندي يصر دائمًا ويعلم من حوله بأنه من واجب كل امرئ أن ينظر إلى جميع الأديان باحترام متكافئ، وأن يُعامل أتباع هذه الأديان كلها معاملة متكافئة، ولقد قدم حياته، آخر الأمر، قربانًا على مذبح هذا الغرض.

تعامله مع الخصوم

اتبع المهاتما غاندي سياسة واضحة طوال حياته في تعامله مع الخصوم، ذلك أنه لم يقل أو يكتب ضد خصومه أيما شيء قد يثير الضغينة أو أيما شيء قد تفوح منه حتى رائحةُ الحقد عليهم. إذ كان مُتسامحًا مع الجميع ومُحبًا لهم.

عقيدة الصوم

آمن غاندي بأهمية الصوم لتطهير النفس، وكان يصوم في مناسبات عديدة، وكان يصوم في كل مرة لسببٍ خاص. لقد كانت له ثقة راسخة في فعالية الصوم، إذ كان يعتبره وسيلة إلى التطهير الذاتي لا تخطئ ولا تخفق.

وكان يؤمن أيضًا بأن النجاح إذا لم يُحرَزْ في قضية ما، فمرد ذلك إلى وجود عيب أو علة في نفس المرء، وأنه إذا ما أُزيل ذلك العيب أو تلك العلة من طريق التطهير الذاتي فعندئذ يتم النجاح على نحو آلي. وكان أولئك الذين عجزوا عن قدر عملياته العقلية الدقيقة حق قدرها يحسبون أن المهاتماجي إنما صام صياماته هذه لأنه أراد للأشياء أن تُنْجَزَ من طريق الضغط على الآخرين. ومع ذلك فإذا كان صيامه وسيلة من وسائل الضغط فلا ريب في أنه كان ضَغْطَ حب، ضغطًا لا يستطيع غير محبي غانديجي أن يستشعروه من دون خصومه جميعًا.

ولكن حتى خصومه هؤلاء كانوا يخافون، في ما يبدو، ثورة الرأي العام بسبب من صيامه. أما أولئك الذين ما كانوا يبالون بالرأي العام فلم يتكشفوا قط عن أيما أمارات تدل على تأثرهم به، ومع ذلك فقد كان غانديجي يؤمن إيمانًا راسخًا بأنه حتى ولو

لم تبد على خصومه آثار تؤذن بأن صيامه ذَا رَجْع في نفوسهم فلا بد لذلك الصيام من أن يفعل فعله فيهم، لأن هدفه الحقيقي هو التطهير الذاتي.

وعلى أية حال فقد كان غانديجي كلما صام لمجرد إكراه الخصوم على أمر ما، يعتبر صيامه ذلك صيامًا فاشلًا على الرغم من أدائه هدفه من وجهة النظر العملية.

رفض اللامساسية

كان المهاتماجي يضع في الوقت نفسه توكيدًا كبيرًا على إلغاء اللامساسية Untouchability، ورفض نبذ أحد.

فقد راح كثيرون من رجال (المؤتمر) يعملون في هذا الحقل عملًا ناشطًا، كانوا يزورون أحياء المنبوذين لمساعدتهم في عملهم، وتعليمهم أن لا يطبقوا اللامساسية في حياتهم الشخصية، وبذل الجهود لفتح بيوت العبادة في وجههم. بيد أن برنامج إنهاض المنبوذين لم يكن قد اكتسب الزخم أو أحرز التقدم اللذين تما له في ما بعد، وعلى الرغم من أن الجَو الملائم كان قد أُعد له.

وكان من دأب المهاتماجي أن لا يسأل أحدًا القيام بمهمة لم يكن هو نفسه (أي غاندي) على استعداد للقيام بها. ففي أشرم ساباراماتي مثلًا كان قد تبنى فتاةً منبوذةً، كانت قد نشأتْ هناك. وترعرعت هناك أيضًا، ولقد ظلت تحيا مع غانديجي وكاستورباي زوجته حتى تزوجت، لقد كان للمهاتماجي أربعة صبيان ولكن لم يكن له بنت، فإذا بتلك الفتاة تملأ في سهولة ويسر محل البنت في حياته العائلية.

وحاول المهاتماجي أن يقضي على هذا النوع من

اللامساسية المتطرفة لأنه اعتقد أنه إذا ما وُفق إلى التخلص منها فإن مظاهرها الأكثر اعتدالًا لا بد أن تفقد قوتها وتتلاشى على نحو تدريجي. وكان قد قضى وقتًا طويلًا في البلدان الأجنبية، فكان طبيعيًا إلى حد، قليل أو كثير، أن لا يتقيَّد بأي من هذه التقاليد التي تقضي باجتناب الطعام الذي مسه جماعة من طبقة أخرى أو من طائفة أخرى. ولكن ذلك كان شيئًا جديدًا على الناس الذين في هذه البلاد، وبخاصة بالنسبة إلى أبناء القرى.

يقول راجندرا برازاد:

الواقع أن الذين احتكّوا بغانديجي لم يلتزموا هذه القيود الاجتماعية، ففي تشامباران حطمنا كلنا (نحن الذين عملنا تحت لوائه والذين كنا حتى ذلك الحين نراعي هذه التقاليد ولا نتناول الطعام إلا مع أبناء طبقتنا) هذه القيود، وشرعنا نأكل معًا ـ نأكل لا مع أبناء ما يدعونه طبقةً عليا ولكن مع أبناء الطبقات التي كان محظرًا علينا مجردُ قبول الماء منها، أيضًا، والشيء المهم هو أننا أقدمنا على ذلك في العلن، لا في السر أو على انفراد. كان القرويون الوافدون من مواطن بعيدة يتحلقون حولنا وكنا نتناول طعامنا معًا في حضرتهم ولعل ذلك لم يكن يروق لبعضهم ولكن أيًا منهم لم يرفع صوته باحتجاج ما، إننا لم نسمع منهم أيما نقد لسلوكنا. لعل الناس حسبوا أننا عصبة من النساك المتمردين على القيود الطبقية.

وعندما أخذ المهاتماجي على عاتقه مسألة إلغاء اللامساسية لم يكتف الناس من جميع الطبقات بالجلوس معًا بل طفقوا يأكلون معًا خلال دورات (المؤتمر). وما هي إلا فترة يسيرة حتى تخلى رجال (المؤتمر) عن جميع القيود الطبقية بقَدْر ما يتعلق الأمر بالطعام.

الحرب على اللامساسية

طوف المهاتماجي في البلاد كما تعود أن يفعل من قبل، بالقطار حينًا، وبالسيارة حينًا، مُعلنًا حربًا على اللامساسية في أرجاء البلاد كلها. وقاومه المتزمتون بقوة وعنف، في حين أيده أناس آخرون وراح العالمون منهم بالأسفار المقدسة يستشهدون ببعض آياتها تدعيمًا لموقفه. وفي بعض الأحيان كان أصحاب الرأي المناقض يجادلون، بحماسة، من زاوية تفسيراتهم الخاصة للأسفار المقدسة.

وهكذا كان المجتمع الهندوسي كله في حالٍ من الغليان، والواقع أن بعض الأشخاص الذين أثارت غضبهم حرب غانديجي ضد اللامساسية، ألقوا عليه قنبلة متفجرة فيما كان في طريقه إلى اجتماع عام منتظر عَقْدهُ في بونا، ولكنه لم يصب لحسن الحظ بأذى ما.

تغيير العادات الاجتماعية

أدخل المهاتماجي تغييرًا على العادات الاجتماعية المألوفة عند أبناء الطبقات المختلفة في مسألة التزاوج.

لقد كان هو فيشياويًا بالولادة، ولكن ابنه ديفاداس غاندي كان قد تزوج من شريماتي لاكشمي بنت شري راجاغوبالاتشاريا وهو براهمي من أبناء الطبقة العليا وفي ما بعد شرع على أبناء الطبقات الاجتماعية المختلفة بضرورة التزاوج من المنبوذين وكان من دأبه أن لا يشهد إلا الأعراس التي يكون أحد العروسين فيها منبوذًا من المنبوذين. وعلى العموم فقد كان نادرًا ما يشهد حفلات الزفاف، أما إذا كان العرس عرس عضو من

أعضاء الأشرم أو عرس نسيب لهذا الأشرمي فعندئذ كان غانديجي يشهده.

وفي هذه الأعراس لم تكن القيود الطبقية تُحطم وحسب بل كانت إصلاحات كثيرة جدًّا تدخل على طقوس الزواج.

إن مقدارًا ضخمًا من الاحتفال والأبهة ليُخلع في مجتمعنا على الأعراس وإن أموالًا طائلة لتنفق في هذا السبيل، وخلال الحفلة نفسها تتلى الآيات المقدسة وهي مسوغة باللغة السنسكريتية وهذه الآيات لا يفهمها عادة أي من العروسين ومع ذلك فهما يكررانها من بعد البرهمي الذي يُجري طقوس الزفاف، فكان المهاتماجي يحذف من هذه النصوص المقدسة الأجزاء غير الضرورية ثم يترجمها إلى لغة العروسين المألوفة بعد أن يوجزها إيجازًا كبيرًا، ليس هذا فحسب بل لقد استغنى غانديجي عما كان يلازم الأعراس من مواكب ومآدب وأبهة. فإذا بالحفلة كلها تُنجز في بعض دقائق من غير إنفاق أيما فلس تقريبًا، وعلى الرغم من أن كثيرًا من عادات النظام القديم في الزواج لا تزال سارية إلى اليوم فليس من ريب في أن كثيرًا من الإصلاحات قد أُدخلت عليها، وهكذا أحدث غانديجي تعديلات ثورية في مسألة الطبقات المنغلقة على نفسها وفي الاحتفالات الاجتماعية كانت ذات آثار بعيدة المدى لكنها لم تحظ بالانتشار الذي كان خليقًا بها.

زواج الأرامل

كانت آراء المهاتما غاندي في زواج الأرامل مرّةً أخرى غير معروفة جيدًا في مجال إصلاحاته الاجتماعية داخل المجتمع الهندي. وهنا يقول راجندرا برازاد:

لعل مرد ذلك إلى أنه لم تنشأ مناسبة تتيح له التعبير عن وجهة نظره في هذه المسألة، وخلال إحدى جولاته في بيهار وقعت حادثة جعلت آراءه هذه واضحة جلية فقد كان على مقربة من مدينة آراه «بيت للأرامل» يديره اليانيون، حيث كان يُعنى بآراء الطائفة اليانية ويقدّم إليهن أسباب التعليم وغيرها، وكان من دأب الناس أن يسألوا المهاتماجي زيارة جميع المؤسسات العامة في أيما مكان يتفق له أن يزوره ولم يستطع أن يزور مؤسسات آراه العامة كلها ولكنه قام بزيارة (لبيت الأرامل) ذاك، فأقبلت أرملة طفلة في العاشرة أو في الحادية عشر لتقدم إليه احترامها فسألها غانديجي: هل أنت أرملة أيضًا؟ حتى إذا أجابته أنها أرملة وأنها سوف تنفق بقية حياتها على هذه الحال، تحدرت الدموع على خديه.

وفيما بعد كتب مقالة قال فيها بوضوح إنه ليس من العدل أن نُكره الأرامل على البقاء أرامل طوال حياتهن وإن أولئك اللواتي يرغبن منهن في الزواج من جديد يجب أن يُسمح لهن بذلك. وبعد نشر هذا المقال وضع توكيدًا أعظم على هذا الإصلاح وذهب إلى حد القول بأنه إذا رغب رجلٌ أرمل في الزواج كرة أخرى فيتعين عليه أن لا يتزوج إلا من امرأة أرملة. وعلى الرغم من أن زواج الأرامل لم يشع شيوعًا عريضًا حتى الآن فليس من ريب في أن الناس لم يعودوا ينظرون إليه نظرتهم السابقة.

نهضة النساء

اهتم غاندي بنهضة النساء، فقد استطاع أن يخلق يقظة رائعة عند النساء. وفي ما بعد كانت النساء وكلما نشأت الحاجة

إلى الساتياغراها (اللاعنف) في مكان ما، يشاركن فيها بمثل الشجاعة التي تكشف عنها الرجال. ففي لاعنف مدينة (باردولي)، مثلًا، لعبت النسوة دورًا مرموقًا وأقمن الدليل على قدرتهن على التنظيم.

إن الجلَد والأناة يُعتبران في الهند فضيلتي النساء الرئيسيتين، ومن أجل ذلك كان احتمال الآلام التي انطوت عليها الساتياغراها أيسر عليهن وأدنى إلى طبيعتهن، وحين أعلن المهاتماجي اللاعنف في البلاد كلها، عام 1930م، فإنه ناشد النساء بخاصة أن ينهضن بدعوة الناس بالأساليب اللاعنفية إلى اجتناب المسكرات وكان ذلك عملًا مختلفًا وغير خالٍ من الخطر. ذلك بأنه اقتضاهنَّ مواجهة السكارى الذين كان كثير منهم غلاظ القلوب والذين فقدوا حس الحق والباطل فليس من العسير أن يحدس المرء متى وأين يفقدون السيطرة على نفوسهم.

ومع ذلك فإن كثيرًا من النسوة نهضن بمهمتهن بفعالية وبجرأة بالغة. فكان من نتيجة ذلك أن أُغلقت حانات كثيرة في حين انخفضت نسبة المبيعات في حانات أخرى انخفاضًا كبيرًا. بل إن بعض المدمنين على الشراب أقلعوا عن معاقرة الخمر نهائيًا. وإن كان من العسير أن يتم تحديد عدد الذين شُفوا من هذه العادة الوبيلة آنذاك.

ويُذكر أن النسوة كن يجتمعن في حشود مستقلة حيثما ذهب غاندي، لأنهن لم يحببن أن يشهدن الاجتماعات التي يحتشد فيها الرجال أيضًا، أو لعلهن اعتقدن أنه من الملائم لهن أكثر أن يلقينه في اجتماع مستقل. وكن لا يحتجبن في حضرته. وهذه الاجتماعات المستقلة الخاصة بالنساء كادت أن تُصبح عُرفًا

مألوفًا حيثما وجه غاندي وجهه، سواء أكان ارتحاله متصلًا بأعمال المؤتمر أو من أجل جمع الأموال والمساعدات «الجمعية الغازلين لجميع الهند». وكن يقدّمن إليه حُليّهن إسهامًا منهن في حملة جمع المساعدات.

وهكذا كان المهاتما غاندي يجمع قدرًا عظيمًا من المجوهرات ثم يبيعها ويحولها إلى نقد للخدمة العامة.

نزع السلاح

قال أحد الأجانب إن غانديجي بتجريده شعبهُ من السلاح قد جرَّد البريطانيين من سلاحهم. ما يعني أنه بتعليمه الهنود أن يكونوا لا عنيفين قد جعل أسلحة الحكومة غير فعالة.

في هذا المقام يقول راجندرا برازاد:

لقد كان ذلك صحيحًا مئة بالمئة، فلو إننا أدركنا أكمل الإدراك معنى اللاعنف إذن لما استطعنا أن نحقق الاستقلال بأسرع مما حققناه فحسب، بل لكان في ميسورنا أيضًا أن نكتسب القوة لمواجهة العالم في مختلف الأحوال والمناسبات. ولكن هذا الأمل لمَا يتحقق حتى الآن، لقد كسبنا حريتنا، هذا الحق لا ريب فيه، ومع ذلك فإن علينا اليوم أن نعتمد في حماية هذا الاستقلال على قواتنا المسلحة!

عدم المبالغة

كان من مبادئ المهاتماجي أن لا يبالغ أبدًا. إذ كان يزنُ كل كلمة يقولها ويضفي عليها كاملَ معناها ومغزاها.

وعند وضعه مشروعات القرارات بخاصة فإنه كان لا يصطنع أيما تعبير من التعابير لمجرد الحشو أو رغبةً في تحسين الأسلوب.

الحق ينتشر

حاول بعض المقربين من غاندي في إحدى الفترات أن يسجل بصوته، ولا بكلماته فحسب، رسالة إلى الجماهير، وخاصة أنهم لا يعرفون هل ستحافظ الحكومة على حريته أم لا، على اعتبار أنه من الممكن أن تنتشر رسالته الصوتية في حال دخوله السجن، فتؤدي تلك الرسالة خدمة إلى حركة الساتياغراها (اللاعنف)، ولكن المهاتما غاندي رفض تلك الفكرة.

قال غاندي: «إذا كان في رسالتي حق ما فعندئذ لا بدَ أن يصغي إليها الناس باهتمام، سواء أكنت داخل السجن أو خارجه. أما إذا كانت خلوًا من الحق فعندئذ لا بد أن تعجزوا عن نقلها إلى الناس على الرغم من جهودكم كلها، وعلى الرغم من الاستعانة بالغرامافون أو الحاكي. وإذا كانت الساتياغراها التي نعتزم إعلانها هي الساتياغراها حقًا، يعني إذا كانت تفيد إصرارًا على الحق، وإذا كنا مستعدين لأن نمضي قدمًا على أساس الحق واللاعنف فلا بد أن تُكلّل بالنجاح، سواء أسمع الناس كلماتي أم لم يسمعوها، وسواء أبلغ صوتي آذانهم أم لم يَبلغها. وهكذا فإن تسجيلًا كهذا ليس ضروريًا وليس من المحتمل أن يؤدي أيّ عون للحركة».

داخل السجن

كان المهاتما غاندي داخل السجن نموذجًا للسجين الأمين، كان أمينًا مع نفسه ومع الآخرين من حوله، لا يشاغب، ويحترم القواعد والأنظمة وينفذها طالما كان مقتنعًا بها ولا تمس احترامه الذاتي.

يقول راجندرا برازاد:

كثيرًا ما حذَرنا المهاتماجي قائلًا إن الشخص القادر على احترام القانون هو وحده المؤهل لأن يتحداه. يعني أن الشخص الذي تعود أن يتحدى القانون ليس أهلًا لكسْره بوصفه لاعنفيًا، ذلك بأنه لا يستطيع أن يُقدم على ذلك بالروح الصحيحة وبأن عصيانه المدني لن يُحدث في نفس الخصم أيما أثر.

من أجل ذلك كان قد علّمنا أن نحترم جميع القواعد والأنظمة النافذة في السجون، ما عدا تلك التي تمسّ احترامنا الذاتي.

وكان المهاتماجي قد قال إنه من غير اللائق عزل السجناء السياسيين في طبقة أو فئة مستقلة، لأنه اعتقد أن الذين راودوا السجين عن نفسه من زملائنا يجب أن ينظروا إلى أنفسهم نظرتهم إلى السجناء الآخرين، ويجب أن يكونوا مُستعدين لتحمل الآلام نفسها التي يتحملها أولئك السجناء.

وهكذا ننمي في ذات نفسنا مشاركةً وجدانية في آلام العاديين من الناس الذين لا بد أن يستشعروا، بدَوْرهم، مشاركةً وجدانيةً في آلامنا.

ما تم فعلًا

اقترح البعض على المهاتما غاندي إضافة مواد جديدة إلى اتفاق ثنائي، عُرف وقته باتفاقية غاندي - إيروين، إلا أن غاندي رفض ذلك بشدة وقال لهم:

«إن الاتفاقية سوف تنص على انتصارنا إلى الحد الذي تم لنا فعلًا. لا إلى أبعد من ذلك البتة، وحتى لو استطعنا أن

نُضمن الاتفاقية شيئًا زائدًا على نجاحنا فلن يكون لذلك أيما قيمة بالنسبة إلينا، ذلك بأننا لن نستطيع الإفادة منه إلا بمقدار ما كسبنا من قوة. وإن قوتنا لتتناسب، في الواقع، مع مدى النجاح الذي حقّقناه. وإذن فيتعيّن علينا أن نطرح أيما فكرة كسولة قد تغرينا بأن نطمع في تضمين الاتفاقية شيئًا زائدًا عما تم لنا فعلًا».

يقول راجندرا برازاد:

أدركتُ أن إيمان المهاتماجي بالحقيقة هو من العمق والرسوخ بحيث كان يأبى أن يأخذ، من طريق اتفاقية من الاتفاقيات، أيما شيء زائد على ما قد كسبه فعلًا. بل إنه قد رأى ظلًا من اللاحقيقة في هذا الضرب من النجاح الظاهري. وهذا صحيح إلى حد بعيد إذا ما فكرنا به في عمق فليس ثمة فائدة تُرتجى من اشتهاء ما لا نستطيع أن نتمثله أو نهضمه. ذلك بأن هذا خليق بأن يعود علينا بالأذى أكثر مما يعود علينا بالنفع. وهكذا فإن غانديجي لم يطمع في أيما شيء فوق الذي حققناه فعلًا. بل لم يحاول أن يكسب شيئًا أكثر.

الاندماج بين المواطنين

كان المهاتماجي ينظر إلى اللامساسية نظرتَهُ إلى إثم، وكان قد خاض معركة ضارية مع المجتمع الهندوسي للتخلص منها. ومن ثم فقد رفض فكرة أن تكون هناك دوائر انتخابية خاصة بالمنبوذين.

لقد شعر بأن إنشاء الدائرة الانتخابية المستقلة للمنبوذين سوف يخلد لامساسيتهم، ويفصل ما بينهم وبين الهندوس إلى

الأبد. ولم يكن على استعداد، من وجهة نظر أخلاقية وروحية خالصة، أن يتسامح بمثل هذا الفَصْل.

وذهب بعض المنبوذين إلى الاعتقاد بأن معارضة إنشاء الدائرة الانتخابية المستقلة لهم مستوحاة من عوامل سياسية، باعتبار أن في استطاعة الهندوس ـ بإبقاء المنبوذين إلى جانبهم من طريق الدائرة الانتخابية المشتركة ـ أن يقاوموا المسلمين بقوة وفعالية.

ويعلق راجندرا برازاد، صاحب كتاب (**عند قدمي غاندي**)، بقوله إن أولئك الذين عرفوا تفكير المهاتما غاندي وآمنوا بكلامه لم يشكوا لحظة في أن المسألة بالنسبة إليه كانت مسألة روحية لا سياسية، وكان يعتبر المنبوذين جزءًا لا يتجزّأ من المجتمع الهندوسي، ولقد أراد أن يمنحهم نفس المنزلة التي تمتَّعت بها الطبقات الأخرى في ذلك المجتمع، وحين أدرك أن إنشاء الدائرة الانتخابية المستقلة سوف يقضي على هذا الإصلاح ويُفضي إلى عزلهم عَزْلًا سرمديًا، في الشؤون السياسية، عزلًا شبيهًا بذلك العزل المفروض عليهم في الشؤون الاجتماعية، أعلن في مؤتمر المائدة المستديرة أنه إذا ما قبلت الحكومة البريطانية هذا المطلب فإنه لن يقبله أبدًا، وأنه سوف يقاتل حتى الموت، إذا اقتضى الأمر ذلك، من أجل إلغائه. بيد أن أحدًا لم يعلق أهمية كبيرة على تصريحه ذاك ـ المُفعم بالمغزى والخطر ـ في ذلك الحين. ولو قد لُفتَ نظر أيما امرئ إلى هذا الكلام، إذن لحسبَهُ مجرد تصريح بلاغي يهدف إلى توكيد مطلبه، ولا ينطوي على أيما معنى آخر وراء ذلك. ولكن المهاتماجي كان قد اصطنع ذلك التعبير عامدًا، وكان قد وطن النية على العمل وفقه.

حرية حق العبادة

كان غاندي مُقتنعًا بأن حرمان أيما امرئ حق العبادة في هيكل ما أو معاملته كشخص منبوذ هو إثم يقترفه أولئك الذين يعاملونه معاملة المنبوذ، بقدر ما هو إثم يرتكبه الشخص الذي يخضع لهذه المعاملة.

من أجل ذلك كان من رأيه أنه ما لم يُطهر المجتمع الهندوسي نفسَه من هذا الإثم فلن يوفق إلى إحراز تقدم ما. فلقد كان المنبوذون جزءًا لا يتجزأ من ذلك المجتمع، وأيما تحسين يمكن أن يحْدَث في أحوالهم لن يكون كافيًا.

وهكذا مضى قدمًا في أداء مهمته، بصرف النظر عن معارضة بعض المنبوذين، وبصرف النظر عن معارضة المتعصبين من الهندوس، على حد سواء.

الوحدة الوطنية

قصد غاندي جنوب أفريقيا كمحامٍ للدفاع عن تاجر مسلم. وكان الاضطهاد الذي أُنزل بالهنود ـ هندوسًا ومسلمين على حد سواء ـ هو السبب في مقامه المتواصل في تلك الديار.

والساتياغراها (اللاعنف) إنما أُعلنتْ أولَ ما أُعلنتْ احتجاجًا على المظالم وضروب الكبت التي أُخضع لها الهنود هناك، وهناك أيضًا صيغت لفظة (الساتياغراها) أول ما صيغت، ووُضع برنامج الساتياغراها كله أول ما وُضع.

وانضم الهنود والمسلمون ـ سواء بسواء ـ إلى الحركة بحماسة بالغة، ولم ينشأ مرةً واحدة مجالٌ لأيما خلاف بين الفريقين.

بيد أن وحدة النضال هذه لم تكن مستغربة بحال، بل كانت أمرًا طبيعيًا في بلد أجنبي، حيث كان الهنود جميعًا ـ على الرغم من قلة عددهم ـ يُسامون، من غير ما تمييز، سوء الاضطهاد، وحيث كان أبناء البلاد وحكومتهم يرفعون العصا في وجه الشعب. وأيًا ما كان، فقد أدرك غانديجي في جنوب أفريقيا أن الهند ـ حيث يدين الناس بأديان مختلفة، ويتكلمون لغات مختلفة، ويحيون وفقًا لعادات وأعراف مختلفة ـ لن تستطيع بغير وحدة هدف كهذه أن تقاوم الحكم الأجنبي مقاومة فعالة، ولن تستطيع طوائفها أن تتعايش تعايشًا سليمًا ولو فترة قصيرة من زمان. من أجل ذلك جعل الوحدة الهندوسية الإسلامية ـ التي تعني في الحقيقة الوحدة بين الهنود ـ أيًا كانت مذاهبهم ـ المبدأ الرئيسي الذي لا يُستغنى عنه البتة في حياته العامة.

كان المهاتماجي يعتقد بأن الهندوس والمسلمين، على الرغم من اعتناقهم دينين مختلفين، إنما هم يؤلفون أمة واحدة. ولقد أعلن، بإصرار أن من واجب الحكومة حماية رعاياها كلهم بصرف النظر عن العرق أو الدين.

توقيع غاندي

استن المهاتما غاندي سُنّةً جديدة، فكان لا يمنح توقيعه أحدًا من الناس ما لم يتبرع بخمس روبيات لصندوق المنبوذين، صحيح أن عدد الراغبين في الفوز بتوقيعه قد تناقص، مع الوقت، ولكن صندوق المنبوذين كسب على الرغم من ذلك بعض المال.

ولم يكن في حاجة إلى أن يقول إنه سوف يمنح توقيعه طائفة ما، وهو لم يمنحه الناس جميعًا.

كان كل من يقدم تلك الهبة يفوز بذلك التوقيع، أما من أحجم عن تقديمها فقد كان يمضي إلى سبيله خائبًا، مهما يكن شأنه أو مكانته، بيد أن الأثرياء دفعوا أكثر من خمس روبيات بكثير. وعلى هذا النحو كان غانديجي يجمع خلال العام مبلغًا ضخمًا جدًّا لمنظمة «هاريجان سيفاك سانغ».

وإلى جانب هذا كله كانت صحيفة (**هاريجان** Harijan) الأسبوعية لا تكف عن الظهور، وكانت هذه الصحيفة تُنشر بالإنجليزية بالإضافة إلى الهندية، والماراثية، والبنغالية، والأوردو مع بعض التعديل في اسمها. ووفقًا لمألوف عادته فإنه كان يكتب مقالات كثيرة لصحيفة (**هاريجان**)، وما كان أحدٌ لينشر أيّ مقال في تلك الصحيفة إلا بعد أن ينظر غانديجي فيه نظرًا دقيقًا.

مقاطعة الأقمشة الأجنبية

كانت مقاطعة الأقمشة البريطانية ـ وطوال فترة النضال من أجل الاستقلال ـ بندًا بارزًا من بنود برنامج اللاتعاون، وفي هذه المسألة كان بعض الزعماء قد اختلفوا، من حيث المبدأ، مع المهاتما غاندي. فهم لم يرتاحوا لهذه المقاطعة المحدودة، مؤثرين مقاطعة السلع البريطانية كلها، ولا الأقمشة البريطانية فقط، ذلك بأن الكفاح كان ضد البريطانيين الذين اعتمدوا أعظم الاعتماد على تجارتهم مع الهند التي كانت سوقًا من أسواقهم الرئيسية.

ولقد ذهب هؤلاء الزعماء إلى الاعتقاد بأن مقاطعة السلع البريطانية، تعطيهم القدرة على إكراه البريطانيين على التساهل، وحملهم على التسليم بمطلبهم الخاص بالسواراج (الحكم الذاتي).

أما المهاتما غاندي فقد اعتبر هذا الضرب من المقاطعة شكلًا من أشكال العنف، ومن أجل ذلك فإنه لم يُقره، لقد اعتقد أن البريطانيين قد قتلوا صناعة الغزل والنسيج في الهند بتسخيرهم سلطانهم السياسي لخدمة صناعتهم هم وتشجيعها. ومن هنا كان من الخير إحياء الصناعة الهندية التي كانت شاملة تقريبًا، والتي كان تدميرها قد غيّر بنية البلاد الاقتصادية برمتها.

وذهب أيضًا إلى أن إحياء الغزل اليدوي والنسيج اليدوي لا يقتضي مقاطعة القماش اليدوي وحده، بل مقاطعة القماش الأجنبي كله، وهذا هو السبب الذي من أجله أصر على مقاطعة جميع الأقمشة الأجنبية، لا على مقاطعة الأقمشة البريطانية فحسب.

اهتمامه بالغزل اليدوي

لم ينظر المهاتما غاندي إلى الغزل اليدوي والنسيج اليدوي وكأنهما مجرد صناعة، على الرغم من أن هذه الصناعة تساعد أفقر طبقات الأمة على العيش، لقد دعاها غير مرةٍ، قَلْبَ الصناعات اليدوية كلها، وكتب في مناسبات عديدة يقول إن صنع «الخادار» يحتل بين الصناعات البيتية مثل المركز الذي تحتله الشمس بين الكواكب السيارة، وخلال فترة النضال من أجل السواراج (الحكم الذاتي)، أمسى ضربًا من الزي الموحد لجميع المشاركين في ذلك النضال.

والواقع أن غانديجي، حتى عندما صام واحدًا وعشرين يومًا وأصيب جسده بوهن عظيم، لم يُطرح الغزل يومًا واحدًا، وكان إذا ما استغرق الاهتمام بالقضايا العامة نهاره كله ولم يُبْقِ له متسعًا للغزل عمد إلى اختصار فترة نومه لأداء هذه المهمة. لقد

كانت عنده واجبًا مقدسًا، وكان يؤديها بمثل الخشوع والتقى الذين كان يؤدي بهما صلواته.

يأكل ليعيش لا يعيش ليأكل

ذهب غانديجي إلى الاعتقاد بأن ممارسة البراهماتشاريا، أي السلوك الذي يقود المرء إلى الله كما أنها تعني أيضًا ضبط النفس، شرط ضروري من شروط الاهيمسا (اللاعنف) وأن من الجوهري إذن أن يتناول المرء الأطعمة البسيطة التي لا تهيج ولا تثير الأعصاب، وهذا هو السبب الذي من أجله لم يتناول غير الطعام الذي يحفظ للجسم قوته وصحته، ولكنه لا يؤدي إلى إثارة الأعصاب.

ولقد اعتقد أيضًا أن اكتساب السيطرة على حاسة الذوق ضروري للسيطرة على سائر الحواس. ومن هنا اعتبر تناول الأطعمة الحيوانية المدعوة تاماسي (tamasi) أمرًا غير مرغوب فيه. وكان يذهب إلى أن الطعام يجب أن يؤكل للإبقاء على صحة الجسم وقوته، لا من أجل إمتاع الفكّيْن وإشباع نزواتهما.

وهذا هو السبب الذي جعله لا يهتم بمذاق الطعام أبدًا، فهو ينظر إليه من حيث خصائصهُ التي تعود على الصحة بالخير، ليس غير، وهذا ما جعل المهاتماجي يُكثر من الكتابة عن ضرورة الأكل من أجل الصحة، صحة الجسم وصحة العقل جميعًا، وهذا أيضًا هو السبب الذي يفسر لماذا أُجريت تجارب على الغذاء من غير انقطاع، في أشرم سابارماتي، ولماذا كان كثير من خُلصاء (الأشرم) يجرون هذه التجارب على أجسادهم ذاتها.

نذور غاندي الـ 11

كان المهاتماجي يؤدي نذوره الأحد عشر كل يوم في وقت الصلاة، وهي: نذور اللاعنف، والحق، واللاتملك، والبراهماتشاريا (أى السيطرة على الغريزة الجنسية)، واللاكسب، والعمل البدني، وقهر الفك، والاتكال على النفس، والاحترام المتكافئ لجميع الأديان، والسواديشي (Swadeshi)، بمعنى العمل من أجل الاستقلال وبإنتاج المصنوعات الوطنية والإقبال على شرائها ومقاطعة السلع الأجنبية.

المال وسيلة لا غاية

كان الزعيم غاندي يؤمن بأن الرجل غير المستقيم في شؤون المال أو غير الصالح في حياته الخاصة لا يستطيع أن يكون مُستقيمًا أو صالحًا في حياته العامة. وأن الرجل الذي لا يتورع عن اكتساب المال بأساليب مستنكرة، والذي لا مجال للثقة به في شؤونه الشخصية نفسها كيف يمكن الاتكال عليه والثقة به في الشؤون العامة؟! والرجل الذي يدين بأن أسهل الطرق إلى الثروة هي طريق اللامبالاة بالحق في قضايا صغيرة غير أهل للقيام بأيما خدمة كبيرة عامة.

كما كان يرى أن الثروة المكتسبة بطرق غير أمينة أو بوسائل غير شريفة لا يمكن أن تؤتي ثمراتٍ صالحات ولو اصطنعت في أغراضٍ صالحة، لأن الثروة البغيضة ليست غير ضرورية فحسب ولكنها مصدر من مصادر الأذى أيضًا، وهذا هو السبب الذي من أجله نصَ نذر من نذور غانديجي على أنه يجب أن لا يكسب المرء من المال فوق حاجته البتة.

الخدمة العامة

يحكي راجندرا برازاد قائلًا:

فيما كنت رئيسًا للجمعية التأسيسية، في أربعينيات القرن العشرين، وكان لها مهمتان هما وضع الدستور والعمل بوصفها الجمعية التشريعية المركزية، نشأت حالة تمس احترامي الذاتي ففكرت في تقديم استقالتي من الرئاسة ليس هذا فحسب بل لقد وضعت مسودة لكتاب استقالتي، بيد أني رأيت أنه من الضروري قبل أن أخطو مثل هذه الخطوة الخطيرة أن أستشير المهاتماجي.

لقد أوضحت له المسألة كلها وأطلعته على مسودة كتاب الاستقالة فأقر ما كتبت ولكنه لم يوافق على السبيل التي كنت قد اعتزمت سلوكها، لقد قال لي «لو أن شخصًا غيرك أراد أن يفعل ذلك لما اعترضت سبيله ولكن ليس من الحق أن تقدم استقالتك لمجرد أن احترامك الذاتي قد مُس. ففي ميدان الخدمة العامة يتعين على المرء أن يكون مُستعدًا لتحمل الإهانات ويتعين عليه أن لا ينسحب من الميدان مُتأثرًا بتلك الإهانات».

طلب الحرية

خلال السنوات الثلاثين أو السنوات الاثنتين والثلاثين الأخيرة من حياة غاندي، طوف عدة مرات في طول البلاد وعرضها من جبال هيمالايا إلى كانيا كوماري، ومن كوهات إلى كاماخيا.

لقد التقاه ورآه أُناسٌ لا يُحْصَوْن، ولكنه لم يقم في يوم بأيما رحلة ابتغاء الترويح عن النفس أو ابتغاء مشاهدة البلاد:

كانت جولاته كلها تستهدف غرضًا واضحًا محددًا ـ أن يكسب الحرية لبلاده التي كانت خاضعة للحكم الأجنبي، وأن ينفخ روح الحياة في أجساد لا حياة فيها، وأن يخلق حافزًا ويفرضه على قلوب مُوْهَنَة، وأن يقوي النسج الأخلاقي بين مواطني الهند.

وقد أدرك أنه لن يقوى على إنجاز ذلك كله إلا عندما تُفْتَح عيون أبناء الشعب بحيث يستطيعون اكتشاف الأشياء بأنفسهم، ويصبحون شجعانًا لا يعرف الخوف سبيلًا إلى قلوبهم، وينتهون إلى تحقيق قوتهم الذاتية، لقد أيقظهم، ونفى الخوف من قلوبهم، لقد جعلهم يعرفون أنفسهم.

اخترع غاندي سلاحه الذي لا يخطئ، سلاح الساتياغراها (اللاعنف) في جنوب أفريقيا حتى إذا انقلب إلى الهند قدمه إلى أفراد شعبه لكي يحرروا أنفسهم من البؤس والعار اللذين كانت الجماهير الهندية تحيا في غمرتهما، ولكي يتخلصوا من الكسل والاتكالية.

يتساءل راجندرا برازاد قائلًا: ولكن أي معنى تُفيده هذه الساتياغراها على وجه الدقة؟

ويجيب: إنها تفيد معنى الإصرار على الحقيقة ـ الحقيقة التي يتعين علينا أن نلتزمها فكرًا، وكلامًا، وعملًا.

لقد حاول أن يكسب لنا الحرية الفردية والاجتماعية والقومية، وأرانا أنه ليس ثمة في الواقع أيما فرق بين الحياة الفردية وبين الحياة الاجتماعية والقومية.

فطبيعي إذن أن يكون كل ما هو مُؤذٍ للفرد أو مُحرم عليه مُؤذيًا للمجتمع وللأمة ومُحرمًا عليهما سواء بسواء، وإذا كنا في حياتنا الشخصية ومن أجل تقدمنا الذاتي نُسلم بأن حياة اللاصدق تورث الأذى، فيلزم عن ذلك لزومًا منطقيًا أن اللجوء إلى العمل

الخادع لا يُمكن أن يعود على المجتمع أو على الأمة بخير ما. نحن نعتبر من المعيب أن نقول شيئًا ونفعل غيره في حياتنا الشخصية، فيتعين علينا، قياسًا على ذلك، أن نعتبر أنه من المعيب أن نقول شيئًا ونفعل غيره في الشؤون الوطنية أيضًا.

سبع سنوات

بلغ مجموع المُدد التي قضاها الزعيم الهندي غاندي في السجن لأسباب سياسية نحو سبع سنوات.

وكان يقول إنه من الفخر أن يذهب الإنسان إلى السجن من أجل قضية محقة.



أقوال مأثورة

للمناضل الكبير المهاتما غاندي، وعبر حياته التي امتدت لنحو 79 سنة، من سنة 1869م إلى سنة 1948م، أقوال وحكم مأثورة تعبّر عن الكثير من الأفكار والرؤى الإنسانية والقيم الراقية التي آمن غاندي بها وعاش من أجلها ونادى بين الناس بتطبيقها وتنفيذها بشكل عملي.

والواقع أن هذه الأقوال إنما تُمثل في حقيقتها مجموعة من الآراء التي خرجت من فكر وعقل شخص يمتلك الكثير من الوعي والحس الإنساني، شخص مُستنير ومُنير، فضلًا عن تمتّعه بالكثير من الخبرات العميقة، ذلك أن تعاليمه وأقواله قد اشتملت على الكثير من معاني المحبة والرحمة والتعاون وقبول الآخر والحرية والغفران والمساواة والتسامح والسلام.. وغيرها من القيم الإنسانية الراقية والأهداف النبيلة.

ويُشير الواقع كذلك إلى أن المهاتما غاندي لم يُطلق كلمة ما في حياته من غير أن يضفي عليها كامل معناها، ولقد كان أبدًا على استعداد للعمل بموجبها، وهو ما يعني أمامنا اتفاق القول مع الفعل، وتطابق الإيمان مع العمل.

ومن تلك الأقوال التي تُنسب للمهاتما غاندي، والتي استخلصناها من مذكراته ومن بعض المؤلفات التي صدرت

عنه، نذكر منها هنا وعلى سبيل المثال لا الحصر الأقوال والأفكار التالية:

* الحرية غير ذات قيمة إذا لم تشمل حرية ارتكاب الأخطاء.
* الضعيف لا يغفر، فالمغفرة شيمة القوي.
* العين بالعين تجعل كل العالم أعمى.
* عليك أن تكون أنت التغيير الذي تريده للعالم.
* في البدء يتجاهلونك، ثم يسخرون منك، ثم يحاربونك، ثم تنتصر.
* ليس هناك طريق إلى السلام، فالسلام هو الطريق.
* ما يُسلب بالعنف لا يُحتفظ به إلا بالعنف.
* كثيرون حول السلطة وقليلون حول الوطن.
* أينما يتواجد الحب تتواجد الحياة.
* إذ قابلنا الإساءة بالإساءة، فمتى تنتهي الإساءة؟!
* لا يمكن تصنيع العاطفة أو تنظيمها حسب القانون.
* إن الغضب وقلة الاحتمال هما أعداء الفهم الصائب.
* إن التأقلم ليس تقليدًا، بل هو يعني قوة المقاومة والاستيعاب.
* أنا مستعد لأن أموت، ولكن ليس هنالك أي داعٍ لأكون مستعدًا للقتل.
* إن النصر الناتج من العنف مساو للهزيمة، إذ إنه سريع الانقضاء.
* من الأفضل أن أكون عنيفًا إذا كان هنالك عنف في قلوبنا من أن أرتدي رداء اللاعنف لتغطية العجز.

* إن أية جريمة أو إصابة، بغَضّ النظر عن القضية، ارتكبت أو سُبِّبَت لشخص آخر هي جريمة ضد الإنسانية.
* إن الاعتراف الخالص، الذي يصحبه وعد بالتوبة الحقة، إذا قُدم لمن يملك العفو، هو أسمى آيات التوبة والندم.
* لا أحب كلمة التسامح لكن لا أجد كلمة أفضل منها.
* إن هذا التسامح نحو الأديان الأخرى، الذي تعلمته في صغري، لم يعني بالضرورة أن الإيمان بالله، عن إدراك ووعي، كان يملأ نفسي في تلك الأيام، ومع ذلك فإن شيئًا واحدًا كان قد تغلغل إلى أعماق نفسي في ذلك الوقت ـ ذلك هو الإيمان بأن الأخلاق أساس كل شيء، وبأن الحق هو أساس الأخلاق، ومن ثم فقد أصبح الحق الهدف الذي أبتغيه وأخذ إيماني بالحق يزداد على مرّ الأيام، وإدراكي لمعناه يتسع في مداه شيئًا فشيئًا.
* بما أنني رميت سيفي فإن كأس الحب هو كل ما أستطيع أن أهديه لمن يتعرّض لي.
* الاختلاف في الرأي ينبغي ألا يؤدّي إلى العداء، وإلا لكنت أنا وزوجتي من ألدّ الأعداء.
* إننا سوف نكسب معركتنا لا بمقدار ما نقتل من خصومنا ولكن بمقدار ما نقتل في نفوسنا من الرغبة في القتل.
* كرهت أن أفعل في الخفاء ما لا أفعله في العلن.
* إني مؤمن بأن كل خير صادفني في حياتي، إنما كان مرده نزعتي إلى عدم المقاومة.

* لا ينبغي لنا أن ننتظر جزاءً على عملنا، وأنا مؤمن مع ذلك إيمانًا قاطعًا بأن كل عمل طيب لا بد أن يؤتي ثمره في النهاية.
* قدرة الإنسان على تحمل العذاب هي أكبر من قدرة عدوه على تعذيبه.
* إن خلاص الناس إنما يتوقف عليهم وحدهم وعلى قدرتهم على الاحتمال والتضحية.
* ما دمنا منهمكين كلنا في أداء مهمة واحدة فلماذا لا نعتبر أنفسنا أبناء طبقة اجتماعية واحدة؟
* ما الذي يحول بينكم وبين الاعتماد على أنفسكم؟
* لا يليق بنا نحن الذين نرغب في خدمة الشعب، أن نتخذ لأنفسنا خدمًا.
* حين نتخذ قرارًا بعمل شيء ما، يتعيّن علينا أن نبادر إلى تنفيذه في الحال. يجب أن لا ننسخ ذاك القرار.. إن على المرء، بمجرد اتخاذه قرارًا ما، أن لا يطَرح ذلك القرار أو يغفله.
* ما لم تُحسَن أحوال أولئك القوم البائسين وتلك القرى الشقية فلن يكون في ميسور الهند أن تكون سعيدة.
* إذا أردنا أصلاح القرى فمن الجوهري أن نكتسب في القرية نفسها معرفة بمشكلات القرويين ومطالبهم، ابتغاء البحث عن طرائق وأساليب لبحثها وتلبيتها. بيد أن هذه المعرفة لا يمكن أن تُكتَسَب إلا إذا عاش المرء بين الفلاحين وأحبهم، وشاركهم تجاربهم، ولم يجعل من نفسه عبئًا على أبناء القرية بالعيش في رفه

وترف على حسابهم. إن من واجبه على عكس ذلك أن يحيا حياةً تساعدهم على تذليل مصاعبهم وتخفيف الأعباء عن كواهلهم.

* لن أكون مبالغًا إذا قلت إنني حين لاقيت هؤلاء الفلاحين فإنما كنت ألقى الله، وألقى المحبة والحق، وإن ما شاهدته منهم لا تفسير له إلا حبي للناس، وإيماني بالكفاح المنزه عن العنف المتسم بالحب.
* إنه لا ينبغي لنا أن نفيد من أية ورقة تُقدم إلينا في السر، فليس من اللائق بنا أن نطَلع عليها بطريقة خفية سرية.
* إن أيما عمل يُعمل خلسةً أو على نحو خفي هو صنْوُ الخداع إن لم يكن الخداع نفسه.
* يجب أن تطرد هذا الخوف. إننا لا نأتي أي عمل منكر، ولا نقوم بأي نشاط في السر.
* احرصوا على أن لا تقولوا غير الصدق.
* إن على المرء دائمًا أن يلزم الصدق حتى ولو شعر أن ضررًا قد ينشأ عنه مؤقتًا، إذ لا يمكن أن ينشأ عن التزام الصدق، آخر الأمر، إلا الخير.
* أنا أعي كل الوعي أن الشخص الذي يحتلّ في حياة الهند العامة مركزًا كالذي أحتله أنا يجب أن يكون دقيقًا جدًّا في ضرب المَثَل للناس.
* في رأيي المتواضع أن اللاتعاون مع الشر واجب بقدر ما هو واجبٌ التعاونُ مع الخير، ولكن في ما مضى، كان اللاتعاون يتخذ عن عمد، صورة العنف لإرهاق المسيء الشرير، في حين إني أنفق غاية الجهد لأظهر

لأبناء وطني أن اللاتعاون العنيف لا يؤدّي إلا إلى مضاعفة الشر، وأنه لما كان العنف هو السبيل الوحيد إلى تدعيم الشر فإن الوسيلة إلى حرمان الشر دعامتَهُ هي الاستنكاف عن اصطناع العنف. إن اللاعنف ينطوي على قبول طوعي لعقوبة اللاتعاون مع الشر.

* إن تمسكنا بالقيود الطبقية سوف يعترض سبيل عملنا.. مما يؤدي آخر الأمر إلى مضاعفة نفقات العمل ليس غير.
* إننا إذا ما عملنا في إخلاص وتماسك كسبنا شيئًا سوف تثبت الأيام القادمة أنه ذو قيمة كبيرة في خدمة الوطن.
* إن الشخص القادر على احترام القانون هو وحده المؤهل لأن يتحداه، وهذا يعني أن الشخص الذي تعود أن يتحدى القانون ليس أهلًا لكسْره بوصفه لاعنفيًا، ذلك بأنه لا يستطيع أن يُقدم على ذلك بالروح الصحيحة وبأن عصيانه المدني لن يُحدث في نفس الخصم أيما أثر.
* إن على المرء قبل أن يصبح أهلًا لممارسة العصيان المدني، أن يتعلم طاعة قوانين الدولة عن رغبة فيها واحترام لها. فإن المرء لن يكون في وضع يستطيع فيه أن يحكم على قيمة القوانين، وأن يُميز بين الطيب منها والخبيث، العادل منها والظالم، إلا إذا كان قد أطاع قوانين الدولة وأخلص لها، بذلك وحده يكتسب الحق في ممارسة العصيان المدني لبعضها في ظروف معينة.
* إن من واجب الحكومة حماية رعاياها كلهم بصرف النظر عن العرق أو الدين.

* إن قوتنا لتتناسب، في الواقع، مع مدى النجاح الذي حققناه.
* إن الكتب المقدسة نفسها لا تُحرم القيام بالعمل الصالح في الأيام المباركة، وبخاصة حين يكون ذلك العمل في صالح المجموع.
* إن الهدف الذي ترمي إليه الساتياغراها (الساتياجراها) هو إحداث انقلاب خيّر في ذات نفس الخصم من طريق الآلام التي يتحملها المرء والمشاق التي يعانيها، إن على الساتياغراهي (اللاعنفي) أن يحاول إقناع الخصم بصوابية موقفه لا بالقوة والعنف ولكن بالثبات على الحق، وما لم تَسّد هذه الروح أفرادَ الشعب وما لم يفهموا معنى الساتياغراها الحقيقي ويحجموا عن إزعاج الحكومة وإرهاقها وعن اللجوء إلى العنف فإن حركة الساتياغراها لن يتم لها الزخم الضروري، ولن ترسخ جذورها في الأرض.
* إن الساتياجراها هي سلاح الحق، والمؤمن بها ينبغي أن ينأى بنفسه عن العنف، ولذلك فإنني سأكف عن الدعوة إلى ممارسة الساتياجراها إلى أن يتعلم الناس كيف يرعون أصولها بأفكارهم وبألسنتهم وبعقولهم.
* إن المرء لن يستطيع أن يصل إلى تقدير نسبي بين أخطائه وأخطاء غيره إلا إذا نظر إلى أخطائه بمنظار مكبر وإلى أخطاء غيره بمنظار عادي. إن مراعاة هذه القاعدة بذمة وضمير أمر لا غنى عنه لمن أراد أن يكون تابعًا من أتباع الساتياجراها.

* في ميدان الخدمة العامة يتعين على المرء أن يكون مُستعدًا لتحمل الإهانات ويتعين عليه أن لا ينسحب من الميدان متأثرًا بتلك الإهانات.
* إننا لا نستطيع أن نكون أحرارًا ما دمنا لا نمنح الحرية للآخرين.
* المحبة لا يمكن أن تُصْنع أو تنظم بقانون.
* يعتبر اللاعنف والتسامح الديني أكبر قوة في يد الثوار، إنه أشد فتكًا من أسلحة الدمار الشامل.
* العصيان المدني يُصبح واجبًا مقدسًا عندما ينعدم احترام القانون ويعمّ الفساد في الدولة. والمواطن الذي يتعامل مع هذه الدولة يُصبح مشتركًا في الفساد وتغييب القانون.
* المُصلح لا يجوز أن تكون له صلة حميمة بمن يتولّى إصلاحه، والصداقة الحقيقية هي التي تقوم على تآلف بين روحي الصديقين، وهي نادرًا ما توجد في عالمنا هذا، ولا يمكن أن تدوم إلا بين من كانا على شاكلة واحدة. والأصدقاء فوق ذلك يتأثر بعضهم ببعض، ولهذا كان مجال الإصلاح بين الأصدقاء ضيقًا محدودًا، وفي رأيي أن من الواجب تجنب كل صداقة مستأثرة تحول دون مصادقة سائر الناس. ذلك أن الإنسان يتأثر بالرذيلة بأسرع مما يتأثر بدواعي الفضيلة، ومن كان يهدف إلى أن يظل على وفائه لله يجب عليه أن ينأى بنفسه عن كل ما يورطه، وأن يتخذ الناس جميعًا أصدقاء له.
* خليقٌ بالمُعلم أن يكون شديد الحرص في جميع

تصرفاته، سواء أكان مع تلاميذه أو بعيدًا عنهم. فإن في استطاعة المُعلم، حتى ولو كان بعيدًا عن تلاميذه، أن يُحدث أثرًا في نفوسهم بأسلوبه في الحياة. وإنه لمن العبث مثلًا، لو أنني كنت كذوبًا، أن أحاول تعليم تلاميذي الصدق، والمُعلم الجبان لا يستطيع أن يُلقن تلاميذه الشجاعة، فإن فاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه. ومن هنا قررت بيني وبين نفسي أن أجعل من نفسي نموذجًا عمليًا لتلاميذي وتلميذاتي الذين يعيشون معي، حتى انقلبوا في نظري من تلاميذ أُعلمهم إلى مُعلمين أتعلم منهم. نعم فلقد تعلمت منهم أنه لا مناصّ لي من أن أحيا حياة طيبة تتسم بالصدق والأمانة، إن لم يكن من أجلي فعلى الأقل من أجلهم. بل إني لأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن القيود التي فرضتها على نفسي لكي أروضها كان مردّها في أغلب الأحيان أولئك الصغار الذين أقمت منهم حراسًا على نفسي.

* إني أعتبر المرأة رمزًا مُجسدًا للتسامح والاحتمال. وعندما بدأت أفهم معنى المحبة المبرأة من العنف (أحمسا) وأخذت أطبقها في حياتي، وأدركت أن الزوجة ليست أَمَةً للزوج بل هي رفيقته في الحياة وعونه عليها، هي شريكته في السراء والضراء، ولها من الحرية ما له من اختيار سبيلها في الحياة.
* علمتني التجربة أن السكوت جزء من التربية الروحية لكل من كانت تصبو نفسه إلى أن يكون لسان صدق، فإن الميل إلى المبالغة، وكتم الحقيقة أو تغييرها على

علم أو غير علم، إنما هو ناحية من نواحي الضعف في النفس البشرية. ومن كان كلامه قليلًا قلما يندفع في كلامه من دون تفكير، فهو يقيس كل كلمة من كلماته ويزنها قبل أن ينطق بها. ومن الناس على عكس ذلك من يسرفون في الكلام، ولكن إسرافهم لا يمكن أن يكون لخير العالم، بل هو مضيعة للوقت، وتبديد للجهد.

* كنت كلما افتقدت الأمل، وتخلى عني الصديق والمعين، وأظلمت الدنيا في عيني، أجد الفرج وقد أتاني من حيث لا أدري. ومن ثم فإن التضرّع إلى الله، والعبادة والصلاة، لا يمكن أن تكون خرافة، بل هي كلها أمور واقعية بل أكثر واقعية حتى من الأكل والشرب، ومن الجلوس والمشي. بل لا أغالي إذا قلت أنها وحدها الأمور الواقعية. أما ما عداها فهو سراب لا يلبث أن يزول.

* الصوم لا يحدّ من الشهوة البهيمية إلا إذا كان الهدف منه ضبط النفس، فقد لاحظ بعض أصحابي أن شهواتهم ونهمهم إلى ما لذ من الطعام تزداد بعد فترات الصوم، مما يكشف عن أن الصوم لا فائدة منه إلا إذا كانت تصحبه رغبة جارفة في ضبط النفس والحدّ من الشهوات. إن الصوم المادي الذي يقتصر على الامتناع عن الطعام، ولا يصحبه صوم عقلي يهدف إلى تنقية الروح من الأدران، لا بد أن ينتهي بصاحبه إلى النفاق ويجلب عليه كثيرًا من الكوارث.

* إن المِران الروحي ناحية قائمة بذاتها. ذلك أن تربية الروح تستهدف تكوين الخلق السليم وتساعد صاحبها على تحقيق ذاتيته وزيادة معرفته بالله، ولذلك فقد كنت مؤمنًا بأن التربية الروحية لا بد منها للشباب، وأن كل تعليم تعوزه الثقافة الروحية هو تعليم لا جدوى منه، بل هو تعليم قد يكون محفوفًا بكثير من الأوضار.



غاندي في شبابه

الصحافة المصرية
واغتيال غاندي

لقي المهاتما غاندي مصرعه في يوم الجمعة الموافق 30 كانون الثاني/يناير من عام 1948م، بينما كان مُتَجِهًا إلى العبادة والصلاة. وكان هناك ردّ فعل عالمي واسع النطاق لهذا الحدث، ولا سيّما وأن غاندي شخصية عالمية، التزم السلم في كل ما فعله أو قاله.

ومن جانبها فإن الصحف المصرية، على مختلف توجهاتها وانتماءاتها، وتعدّد مضامينها وتنوع ملكياتها، قد اهتمت بنقل خبر اغتياله والتعليق عليه، كما نشرت مقالات الرأي وقصائد الشعر التي أفاضت في مدح الزعيم غاندي ونضاله السلمي من أجل تحرير الهند ودعم وحدتها.

كما عنيت الصحف المصرية بنشر الأخبار الخاصة برد الفعل العالمي على اغتيال غاندي، من حيث: إدانة هذا الفعل، وتنكيس أعلام هيئة الأمم المتحدة، وعزاء مصر مُمثّلة في برقيات الملك فاروق وعدد من المسؤولين والهيئات والمؤسسات المصرية.

وأوضحت الصحف كيف أنه نعاه كثيرون من قادة وزعماء الدول، حيث أُقيمت له العديد من حفلات التأبين في أماكن متفرقة على مستوى العالم.

والواقع أن غاندي لم يكن غريبًا عن الصحف المصرية التي طالما اهتمت بمتابعة أخبار نضاله وجهاده في سبيل تحرير الهند، ويُذكر هنا أنه في أثناء سفر غاندي إلى أحد المؤتمرات المنعقدة في لندن عام 1932م مر بمصر وأفردت الصحف المصرية صفحاتها للحديث عن هذا «الثائر القديس» إذ كان له معجبون ومؤيدون كثيرون[1].

ونذكر هنا بعض النماذج مما نشرته بعض الصحف المصرية في تلك الفترة عن اغتيال المهاتما غاندي..

نشرت جريدة (المقطّم)، لمؤسسيها فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس، في عددها الصادر مساء السبت 31 كانون الثاني/يناير 1948م، بصفحتها الأولى موضوعًا طويلًا تقول عناوينه «غاندي رسول السلام يلقى حتفه في غير سلام. حرق جثته بعد ظهر اليوم عند ضفة النهر المقدس. العالم يبكي زعيم الهند الروحي. مواطنوه يحيونه في مكان مصرعه».

كما نشرت الجريدة مقالًا عنوانه «مات رسول السلام نصير الضعيف وصديق الفقير وجليس الذليل»، جاء فيه «مات غاندي ولكن سيرته وقدرته ستظلان قائمتين إلى أن يحقق الله ما ابتغاه وما ارتضاه، ورحم الله الرجل الذي عاش لسواه ومات في خدمة سواه ونفعنا جميعًا بذكرى من خضعت له القوى وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ما يستر بعض جسمه ويُشبع به بعض جوعه، وهذا انتصار الروح على الجسد ورحم الله غاندي العظيم».

---

(1) فايز فرح، **عباقرة هزموا اليأس**، القاهرة: دار الثقافة، 1989م، ص 135.

وقالت جريدة (مصر)، لمؤسسها تادرس شنودة المنقبادي، مساء السبت 31 كانون الثاني/يناير 1948م، في صفحتها الأولى: «مصرع غاندي رمز الإخاء والسلام في العالم».

كما نشرت مقالًا لسلامة موسى عنوانه «قديس يغادر الأرض»، قال فيه «يعمّ العالم هذا اليوم حداد. فقد قُتل غاندي أمس وغادر الأرض أعظم القديسين في عصرنا.. نحن أفقر بوفاة غاندي في الشرف والمروءة والشهامة والشجاعة والطهارة وفي كل قيمة بشرية سامية.. وستبقى ذكرى غاندي في قلوبنا نضرة طلية.. وهذا الحزن على وفاته سيزول قريبًا وثم بعد ذلك نبقى سعداء بذكرى حياته التي أخصبت هذه الدنيا وملأتها نورًا يقشع الظلام وعدلًا يحطم الاستبداد».

ونشرت جريدة (السياسة)، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين، في 31 كانون الثاني/يناير 1948م، في صفحتها الأولى صورة غاندي وقالت معها «اغتيال غاندي بيد أثيم هندوكي. إطلاق أربع رصاصات على المهاتما غاندي وهو في طريقه للصلاة»، حيث اهتمت بوصف الحادث، وقالت «قُتل غاندي بالأمس غيلة وغدرًا، وهذه القتلة ليست فقط غير مسيئة إلى تاريخ هذا الإنسان العظيم، بل إنها ستضيف إلى صفحات هذا التاريخ صفحة أخرى للمجد والشرف. فقد عاش غاندي كما عاش الصدّيقون، وهو يبرح هذه الدنيا كما يبرحها الشهداء».

ونشرت جريدة (البلاغ)، لسان حال الوفد المصري، لمؤسسها عبد القادر حمزة، في 31 كانون الثاني/يناير 1948م، في الصفحة الأولى صورة غاندي وموضوعًا عنوانه «حداد العالم وحزنه على وفاة المهاتما غاندي».

كما نشرت موضوعًا آخر عنوانه «عنزة غاندي تثير نهرو»، قالت فيه «في يوم 22 كانون الأول/ديسمبر الماضي نفقت العنزة - نيرمالا - عنزة الفقيد غاندي. ولقد عاشت هذه العنزة سبعة أعوام حضرت خلالها اجتماعات للمهاتما بأكبر شخصيات في العالم ومن الطريف أنها أثارت يومًا غضب البانديت جواهر لال نهرو لأنها مأمأت أثناء مناقشة مهمة بينه وبين الفقيد».

ونشرت الجريدة قصيدة شعر كتبها زكي مبارك عنوانها (غاندي) قال فيها:

غاندي وأيام الحياة قصيرة — معدودة الأصباح والأمساء

إن الثمانين التي أمضيتها — كانت بروقًا في غيوم سماء

يا مصلحًا في الهند غاب سناؤه — سيظل نورك فوق كل سناء

القبر جنات وأنت بروضها — روح يطوف بجنة خضراء

لو كان - شوقي - عاش كان رثاؤه — لك من دموع الشعر والشعراء

كما نشرت جريدة (المصري)، لصاحبها محمود أبو الفتح، في 31 كانون الثاني/يناير 1948م، أيضًا صورة غاندي و«مانشيت» بعرض صفحتها الأولى يقول «اغتيال المهاتما غاندي أمس بيد هندوكي أثيم»، مع عنوان آخر يقول «الجاني يطلق أربع رصاصات تستقر جميعها في صدر الفقيد».

واهتمت الجريدة بنشر كلمات مأثورة لغاندي منها: «إن إنكار الذات هو أسمى ضروب التدين» - «في يقيني أننا جميعًا سنعود إلى الأرض، إذا لم نبلغ من الصفاء ما يحملنا إلى السماء» - «على كل مُصلح أن يناضل ضد الشر الخاص بعصره» - «إن الاستعمار هو الشيطان الأكبر في عصرنا

الحديث» - «لو استطعتُ إدخال المغزل في كل كوخ هندي لرضيت نفسي كل الرضا».

وقالت جريدة (أخبار اليوم)، لصاحبيها علي ومصطفي أمين، في يوم السبت 31 كانون الأول/يناير 1948م، في صفحتها الأولى «اغتيال غاندي بأربع رصاصات»، مع صورة له وكتبت تحتها تقول: «غاندي.. نجا في المرة الأولى.. وقضي عليه في المرة الثانية». وفي صفحتها الثانية نشرت موضوعًا عنوانه «صدى وفاة غاندي في العالم».

وكتب توفيق الحكيم مقالًا عنوانه «غاندي..!»، عقد فيه مقارنةً بين المهاتما غاندي والسيد المسيح، قال فيه «عاش غاندي بالروح كما عاش المسيح.. ومات مقتولًا بيد عشيرته كما قُتل المسيح.. وواجه جحافل الإمبراطورية بعنزة. كما واجه المسيح جحافل إمبراطورية الرومان، بغصن زيتون».

ونشرت جريدة (الأهرام)، لأصحابها آل تقلا، بتاريخ أول شباط/فبراير 1948م، في صفحتها الأولى صورة غاندي وقالت «تشييع جنازة المهاتما غاندي أمس. إحراق جثته عند النهر المقدس، نجله ديفاداس يشعل النار ويصلي. حداد هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن - تعازي رؤساء الحكومات - الاضطرابات في بمباي»، حيث وصفته الجريدة برسول السلام والمحبة في القرن العشرين وزعيم الهند الروحي.

كما نشرت قصيدة شعر كتبها محمود محمد صادق عنوانها «وداعًا يا رسول السلام»، يقول فيها:

يا رسول السلام مات السلام وبكاك المسيح والإسلام

ومشى موكب الديانات طرًّا تتهادى بنعشك الأعلام
وانحنى الشرق فوق صدرك يبكي حين جلّ الأسى وعزّ الكلام

كما يقول:

أيها المخلد في الدهر سلامًا. تناهت الآلام!!
فامض كالعهد راضيًا بالماس طالما أنثر ثغرك البسام
آية الحق أن دعوتك الحـ ـق ستعلو وأن يحل الوئام
وإذا ما خلا مكانك في الشـ ـرق حوتك العقول والأفهام
وتخذت الصدور فهي مراح وتخذت القلوب فهي مقام
ما على الروح. والحياة فناء إن حواك الخلود وهو الدوام

وفي نفس العدد، 1 شباط/فبراير 1948م، نشرت جريدة (الأهرام) أيضًا موضوعًا عنوانه «غاندي»، عبارة عن تأملات في حياته، قالت: «كان الحب سر عظمة غاندي، أحب الله وأحب الكون الذي ابتدعه وأحب كل الكائنات. لم يمارس العنف في حياته قط، ولم يضلّه الشك ولا الحقد ولا الشهوات. انظر إلى تصويره البارع للوطنية (إنني إذ أخدم الهند لا أبتغى إيذاء أية أمة أخرى. إن الوطنية القائمة على البغضاء تقتل، أما تلك القائمة على الحب فتمنح الحياة)»..

وتضيف الجريدة «كان غاندي مؤمنًا بالبشرية جمعاء. كان يؤمن أن الله الذي منحه الحياة لم يستودعه إياها فحسب بل استودعه أن يصون كل حياة، أن يكون في الأرض عامل سلام ومحبة وإخاء. فلما واجه الظلم لم يرفع سيفًا، ولكن ألقى غصنًا من أغصان السلام فوقف الظالمون مبهوتين. أحسوا أن هذا

الرجل الهزيل الضئيل قهر بقلبه الرقيق جبروتهم. أحسوا أنه ينظر إليهم كأنهم ضلوا سواء السبيل. فهو لا يلعنهم ولكن يصلي من أجلهم. تسامت به العظمة إلى أعلى عليين. فجعلهم كالمذنبين في الهيكل أو كالتائبين عند قدمي الإله»..

وتضيف «لم يكن الهنود يتبعون غاندي لأنه خطيب ساحر، أو لأن عيونهم بهرها الترف الذي يعيش فيه، أو لأنه يحيط نفسه بالحراس والجواسيس، أو لأن في يده السلطات يمنح ويمنع، ولكنهم كانوا يتبعونه لأنه كان يحبهم جميعًا، أصدقاءه وخصومه على السواء. كان إشعاع الحب في نفسه يسري إلى نفوسهم فيتجسد لهم غاندي قوة من القوى المسيطرة التي تستمد قوتها لا من الشر ولكن من الخير، لا من العنف ولكن من الحب»..

كما تقول «فما أجدرنا أن نحني هاماتنا جميعًا أمام جثمان هذا الهيكل البشري الضعيف الذي هزّ إيمانه قوائم إمبراطورية، وأهوى إليه في معزله قلوب الملايين من مختلف الأجناس والأديان».

وجاء في ختام المقال «إن الدنيا كلها لتحنو على الهند وهي تدفن زعيمها، فإن غاندي لم يكن لها فحسب، ولكن كان للبشرية جمعاء، هذا الذي نبع من قلبه الإيمان فأنشأ شعبًا ومجدًا وتاريخًا».

ونشرت جريدة (البلاغ)، 1 شباط/فبراير 1948م، مقالًا عنوانه «وفاة الرجل الأول في الهند. ماذا تكون حالها بعد هذا الفقيد» كتبه الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني قال فيه «لم يبالغ من قال إن مصرع غاندي كان أشد وقعًا من قنبلة ذرية»..

ويضيف «إن خروج غاندي من الدنيا وخلو مكانه فيها، لا بدّ أن تكون له روعة عظيمة، وتصور أن جبال الهملايا الشمّاء

قد زالت من الوجود؟ أو أن المحيط الأعظم الهادي جف! ولكن المرء يفيق من صدمة الموت، فما من الموت واقٍ، ولا للدهر بلى، أما أن يقتل رجل التضحية والمحبة والسلام والإخاء والحرية، ورسول الرحمة بالضعفاء من كل طبقة، وفي كل أرض وهو ماضٍ إلى صلاته التي لا يفرق فيها بين الأديان، وبدأ يتوكأ على حفيدتيه الصغيرتين، وليس في بدنه الذي لا تستره إلا خرقة صغيرة الأذرة أو ذماء[1]، بعد صيامه الذي وفق به بين المقتتلين من المسلمين والهندوكيين ورد به المساجد إلى أهلها ـ فهذه هي النكبة الإنسانية التي لا يعرف لها التاريخ مثيلًا»..

وعنده أن «قتل مثل هذا الرجل ـ نكسة ـ لا يسع كل إنسان محسن مدرك إلا أن ينكّس رأسه خجلًا منها واستبشاعًا لها».. كما يقول «الواقع أن غاندي لم يكن إنسانًا فردًا، وإنما كان هزاله وضعفه اختزالًا لخير المعاني الإنسانية وأرفعها ولهذا لم يكن من العجيب، مع شدة حيائه، وفرط تواضعه، أن يرزق كل هذه الصلابة، فما كان ينثني له عود، ولا كان يفتر له عزم، ولا كان يعرف يأسًا، فكان يمضي على وجهه لا يعتمد على شيء إلا قوة روحه، ومضاء عزيمته، غير حافل بما عسى أن يصيبه، من سجن أو غيره، مستعدًا أن يتحمل عن الناس طرًّا كل أذى. فكانت القوة تقف أمامه مشلولة لا تستطيع شيئًا، ولا يسعها إلا الخشوع والإذعان»..

---

(1) الذَّماءُ ـ ذَماءُ: بقيَّة الروح في المذبوح وغيره. وفي المثل: «أطول ذَماءً من الضَّبّ». والذَّماءُ أيضًا: قُوّة القلب. يمكن الرجوع إلى قاموس المعاني على شبكة الإنترنت.

ويضيف «فإذا كان العالم كله قد روع، فلا عجب، فإن قتله أشبه بهوى كوكب. أما ما يكون في الهند بعد ذلك فمن الغيب الذي لا يعرفه غير الله، ولكن المرء يخيل إليه أنها فقدت (مركز الثقل) وليس بعيدًا أن نراها تضطرب وتموج، كان الله في عونها».

كما نشرت (البلاغ) في نفس العدد أيضًا، 1 شباط/فبراير 1948م، باب (في مجتمع العمال)، مقالًا عنوانه «دمعة على غاندي» كتبه عبد العليم المهدي قال فيه:

«جزع العالم لفقد غاندي أبو الهند لكن ملايين العمال في الدنيا قد انفطرت قلوبهم حزنًا وكمدًا على هذا الأمل الذي تحطم في حياتهم فجأة فقد زهد هذا الزعيم حياة الترف.. لكنه آثر أن يتخلى عن ذلك، وأن يقاسم المنبوذين طعامهم وأن يكتفي من الدنيا برقعة كساء من مغزله. ورشفات من لبن عنزته ثم يوصي وزراء الهند وحكامها دائمًا بقوله: «ارحموا هؤلاء الفلاحين والعمال.. يا أيها الذين تعيشون على أكتافهم.. ارحموهم من الطمع والظلم الذي يجلب على هذه الملايين الفقر والتعاسة والشقاء».

وكان يقول لتلاميذه أبدًا تمنيت لو أدخلت مغزلًا في بيت كل فقير هندي، فإن هذا المغزل يغنيه عن سؤال الناس عملًا أو لقمة، ويغنيه عن سؤال المستعمر حرية وكرامة، ففي هذا المغزل حياة أعزّ ما تكون الحياة.

فلتحزن الدنيا كلها لمصرع هذا الشهيد العظيم، فإن هذا الحزن لن يسعد روحه في عليائها بقدر ما يسعدها أن تغرق في دموع المساكين.. فقد عاش غاندي بيننا ـ وسنعيش تعاليمه أبدًا ـ

وهو يحارب بروحه الاستعباد والظلم والاضطهاد وتمييز طبقة من الناس على طبقة.

فليبكِ عمال وادي النيل اليوم هذا الحلم الذي انتهى، وذلك النور الذي خبا!».

ونشرت جريدة (الإنذار)، لصاحبها صادق سلامة وكانت تصدر بمدينة المنيا بصعيد مصر، في يوم الأحد 1 شباط/فبراير 1948م، موضوعًا عنوانه «المهاتما غاندي الإنسان العالمي والزعيم الحق»، جاء فيه:

«وجد زعيم استقلال الهند وفيلسوفها وكبير ساستها والروح العظمى والإنسان العالمي ورسول السلام، وجد من يتقدم ليغتاله، وليس المصاب في نظري أن يموت هذا الإنسان فكل الناس زائلون وإنما المصاب أن يتقدم مجرم حقير ليغتال هذا الزعيم.

إن غاندي سيظل حيًا في قلوب أبناء الدنيا حتى يندثر التاريخ وستظل أيضًا ذكراه عاطرة في الدار الأخرى.

إن حياة غاندي سِفر جامع من الإنسانية والتضحية والبطولة وإنكار الذات.

في برقيات آخر ساعة أنه مشى خلف نعشه مئات الألوف انتظمت في خط يبلغ طوله ثماني كيلومترات من جميع طبقات الناس وتحرّك موكبه بين الهتاف الداوي (النصر لغاندي) وكانت باقات الورود والرياحين تتساقط كالمطر على الموكب طول الطريق.

وقد انتهى مطاف المشيعين عند مصب النهر المقدس وهناك أحرقت جثته عملًا بالتقاليد الدينية».

كما نشرت (الإنذار) أيضًا مقالًا طويلًا، عنوانه «الشهيد الذي حزن لمصرعه العالم المهاتما غاندي. حياته المجيدة. دعوته الإنسانية. زعامته الروحانية»، وقع كاتبه على النحو التالي: (أ. حسنى)، وفي المقال لمحات من حياة غاندي ومواقفه ونضاله السلمي..

قال الكاتب: «أخرجت الهند في القرن العشرين أعظم زعيمين في العالم.. طاغور إمام الشعراء الروحيين وغاندي زعيم القادة ورجل السلام»، ويضيف أنه «على الرغم من هذه المنزلة العالية، التي أنزله فيها الناس، فإن المؤرّخين، قد اختلفوا في أمره... ومن حقهم أن يختلفوا، إذ ليس من اليسير أن يصدر حكم على رجل ساد أمة، عرفت منذ الأزل بتفرق الكلمة، لاتساع مساحتها، وكثرة سكانها، وتعدد مذاهبها.. فهل هو زعيم؟ أم هو قديس؟ أم هو صاحب مذهب سياسي؟؟»..

ويقول كذلك «إن هذه الرصاصات الأربع التي صوبت إلى صدر غاندي فأنهت حياته المجهدة لهي مطلع عهد جديد، في مستقبل الهند، فإما أن تدعو الهنود إلى أن يدركوا المغزى من جهاد غاندي، ومن استشهاده في سبيل وحدتهم، فيعملوا بوحي ضمائرهم على إرضاء روحه العظيم في مستقرها الأخير، وإما أن يتركوا للتعصّب المذهبي، الذي جهد غاندي في محاربته السنين الطوال، العنان فتغرق الهند في بحر من الدماء. وتضيع ثمرات جهاده المبذول في سبيل حرية الهند هدرًا».

ونشرت جريدة (المصري)، في 1 شباط/ فبراير 1948م، مانشيتًا في صفحتها الأولى يقول «طوائف الهند تشيع جثمان غاندي إلى مقرّه الأخير. ابنه يشعل النار في جثمانه على المحرقة المقدسة».

ونشرت مجلة (روز اليوسف)، لصاحبتها السيدة فاطمة اليوسف وكان رئيس تحرير المجلة آنذاك ابنها إحسان عبد القدوس، في عدد الأربعاء 4 شباط/فبراير 1948م، موضوعًا جاء عنوانه عبارة عن كلمة لغاندي يقول فيها «إن موتي نكبة على بريطانيا! غاندي»، مع صورة نصفية مرسومة لغاندي، وتضمن الموضوع بعض المواقف من حياة الزعيم الراحل، وبدأت المجلة موضوعها بالكلمات التالية:

«ليس أقدر من الإنسان في استخدام النطق ليخدع أخاه الإنسان.. والمنطق هو أعظم فنون النفاق التي ابتكرتها الأنانية البشرية..

لقد مات غاندي بالأمس، فارتفع صوت المنطق يصيح: (إن غاندي لم يمت.. ففكرته حية لا تموت).

قيل مثل هذا عندما مات محمد وعندما مات أبو بكر وعمر وعثمان وعلي منذ قرون، وقيل مثل هذا عندما مات بالأمس سعد زغلول، فأنانية المنطق البشري لا تريد أن تعترف بالهزيمة على الرغم من وقوع الهزيمة..

لنتحرر مرة من عبودية النفاق، ولنعترف بأن غاندي مات ولن تحيا فكرته إلا إذا أنجبت الإنسانية (غاندي ثانٍ) يستطيع أن يحمل فكرته ويعمل لمبدئه.. فالعالم الإنساني غني بالأفكار والمبادئ، ولكنه فقير برجال الأفكار والمبادئ. لنعترف بأن موت غاندي هو ضربة قاسية وجهها عالم القوة والشر لعالم الروح والخير.

لنعترف أن مصيبة الشرق بل مصيبة العالم لن تُعوّض بموت غاندي.. ولا تكتفوا برثاء الرجل بل أرثوا معه مبادئه! سليم اللوزي».

وفي مقاله الأسبوعي، (من أسبوع لأسبوع)، بمجلة (آخر ساعة)، في عددها الصادر بتاريخ 4 شباط/فبراير 1948م، كتب محمد التابعي يقول «مات قادة شعوب وزعماء وبكاهم الشرق.. أو بكاهم الغرب، ولكن غاندي ـ فيما نعلم ـ كان أول إنسان بكاه الشرق والغرب معًا. كان رسول السلام في عصر الخصام وكان رمز الروح في عصر المادة».

ونشرت جريدة (الأهرام)، 6 شباط/فبراير 1948م، مقالًا كتبه فتحي رضوان المحامي، والذي يبدو أنه كان كثير الاهتمام بشخصية الزعيم الهندي غاندي حيث كتب عنه أكثر من مقال في أكثر من صحيفة، وكان عنوان المقال «غاندي ورسالة عدم العنف»، تحدّث فيه عن تمسكه بدعوة السلام والتسامح وعدم العنف طيلة حياته، وقال عن غاندي إنه «ثاني اثنين، بعد الأنبياء والقديسين، جعل من (عدم العنف رسالة) أنفق في سبيلها ما لم ينفقه أحد من الناس سوى أستاذه الحكيم العظيم ليوتولستوي الروسي».

وفي جريدة (أخبار اليوم)، عدد السبت 7 شباط/فبراير 1948م، كتب فتحي رضوان أيضًا مقالًا طويلًا عنوانه «إله.. أم رواية هوليوود» قال فيه «مهما يختلف الناس في أمر غاندي، فإنه كان قوة من قوى الروح في هذا العالم المادي، ولقد جعل السياسة لونًا لم يكن لها من قبل، وأعاد الثقة في أن الشرق لم يجدب، وأن الوسائل الروحية إذا عالجت بها السياسة شؤون الاجتماع فإنها قد تفعل فعل الأسلحة والجيوش».

وفي كاريكاتير للفنان رخا، بجريدة (أخبار اليوم)، 7 شباط/ فبراير 1948م، جاء فيه السياسي المصري أحمد ماهر يستقبل

غاندي، وهما بجناحي ملائكة في ملابس بيضاء في السماء وسط النجوم، ويقول ماهر لغاندي «أنت كمان حصل لك اللي حصل لي؟!». في إشارة إلى أن أحمد ماهر كان قد اغتيل أيضًا.

ونشرت مجلة (روز اليوسف)، بتاريخ 11 شباط/فبراير 1948م، موضوعًا عنوانه «أرشيف التاريخ: خالدون»، فيه وصف لبعض الشخصيات، وذلك في الصفحة التي يُنشر بها مقال إحسان عبد القدوس (الأسبوع: حوادث وخواطر)، حيث جاء عن غاندي «العاري الذي ارتعد أمامه المتدثرون».

كما نشرت المجلة أيضًا، بتاريخ 18 شباط/فبراير 1948م، مقالًا كتبه فتحي رضوان عنوانه «غاندي.. وديفاليرا!».. قال فيه: «لست أظن أن غاندي دعا إلى المقاومة السلبية، وجعل (الحب) أساسًا لنضاله، والتسامح سلاحًا من أسلحة قتاله نفاقًا منه، وسترًا لضعف بلاده. وإنما أعتقد أن غاندي في دعوته هذه كان ككل زعيم كبير صادق يُحسن تمثيل البيئة التي نشأ فيها، ويظهر خصائصها، ولقد كان غاندي يدعو إلى عدم العنف ولكنه كان يكره أن يجبن الهنود».

وعقد الكاتب مقارنةً بين غاندي وديفاليرا، ذلك الأخير الذي كان من حزب الشين فين كما كان عضوًا في جمعية الأخوة الأرلندية التي كان لها دور مهم آنذاك في مقاومة بريطانيا وتدرجوا من اللين إلى العنف. ويقول الكاتب «غاندي لم يكن إلا مناضلًا لبريطانيا نضال ديفاليرا، وقد أعدّ كل منهما لأعداء بلاده ما استطاع من قوة، فكانت قوة غاندي روحية بحتة، وكانت قوة أرلندا مزيجًا من المقاومة السلبية والعصيان المدني والثورة والحرب».

ويضيف «لو تأمل متأمل لألفى حركة غاندي وديفاليرا جدَّ متشابهتين، لولا الفوارق بين الشعبين ولولا أن أرلندا في أوروبا، والهند في آسيا، فلقد قامت الحركة الأرلندية على بعث اللغة الأرلندية التي اندثرت وعلى إنشاء المدارس الشعبية والألعاب الوطنية التي اختفت، والأغاني القومية التي ماتت وانطوت، وبالجملة إعادة الشعب إلى مصادر ثقافته الأولى، ولقد فعل غاندي الشيء نفسه.. فكان معلّمًا وكان صحفيًا وكان صانعًا. فقد لبس هو ولبس أعضاء مؤتمر الهند (الخدار) الثوب الشعبي المصنوع من قماش، نسجته وغزلته أيدي الهند، فالحركتان تحتذيان مثلًا واحدًا وتبحثان الآن نفس القوى. فلا عجب إذا أحببت الرجلين ودعوت إلى الأخذ عن كليهما فالتناقض بينهما ظاهري، والاتفاق في الأعماق والجوهر يكاد يكون تامًا».

ونشرت مجلة (الهلال)، في عددها الصادر بتاريخ مارس 1948م، مقالًا كتبه حبيب جاماتي عنوانه «دروس من حياة غاندي»، قال فيه «كان أولى بالباكين المترحمين، أن يستمعوا إلى غاندي في حياته، ويعملوا بآرائه، ويطبقوا مبادئه، وينشروا دعوته، ويحلّوا السلام في نفوسهم أولًا، وبين الشعوب المتناحرة ثانيًا!».

وأوضح الكاتب أن لغاندي دروسًا في شبابه وكهولته وشيخوخته وبعد موته، منها النزاهة ونظافة اليد والضمير والبساطة وتناول الغذاء البسيط وحب الخير وخدمة الغير، وذكر مجموعة من أقوال غاندي:

* ليس في حياة الأفراد ولا في حياة الشعوب أي عمل لا يمكن إصلاحه، فالرجوع إلى الصواب يمحو جميع الأخطاء.

* يقولون أن من أراد شيئًا حصل عليه. هذا صحيح، ولكن بشرط أن يسعى الإنسان للحصول على الشيء الذي يريده. فالإرادة وحدها لا تكفى، إذا لم تكن مقرونة بالسعي المتواصل.
* حارب عدوك بالسلاح الذي يخشاه، لا بالسلاح الذي تخشاه أنت.
* الروح أقوى من الجسد، لأنها خالدة، ولأن الجسد فان.
* إذا عرفت كيف تخضع نفسك لإرادتك، فإنك ستعرف كيف تخضع الغير لهذه الإرادة.

ثم قال الكاتب «هذا قليل من كثير. فحياة غاندي كلها دروس، وكلماته كلها حكم.. ولكن، أين من يسمع، وأين من يعمل بالدروس والحكم؟».

قالوا عن غاندي

تأثر كثيرون، من الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين، من المفكرين والمثقفين والكُتاب وغيرهم، بحياة زعيم الهند المهاتما غاندي، فكتبوا وتكلموا عنه كثيرًا، ومنهم من تأثر في حياته الشخصية بحياة غاندي، في مواقفه وآرائه وأفكاره.

في قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقي (1868-1932م) قالها في تحية غاندي جاء فيها:

شبيه الرسل في الذود عن الحق وفي الزهد
لقد علم بالحق وبالصبر وبالقصد

وفي سنة 1945م كتب العالم المعروف صاحب نظرية النسبية أينشتين (1879-1955م) عن غاندي يقول: «إن غاندي يتزعم الشعب الهندي، لا تؤيده في هذه الزعامة أية سلطة خارجية، وهو سياسي لا يقوم نجاحه على الحيلة أو المهارة في الوسائل الفنية، إنما على القوة الاقتناعية في شخصيته. وهو مكافح مظفر، يحتقر على الدوام أساليب العنف، وهو حكيم متواضع، قد تسلح بالإرادة، كي يتناسق سلوكه. وقد أرصد كل قواه لأن ينهض بشعبه ويرقى بمصيره، وقد جابه توحش أوروبا بوقار إنسانيته، ولذلك كان على الدوام يرتفع عليها. إن الأجيال

القادمة سوف تشكّ في أن إنسانًا مثل هذا سعى بقدميه على أرضنا».

وفي سنة 1953م أصدر الكاتب والمفكر المصري سلامة موسى (1887-1958م) كتابه الشهير (**هؤلاء علموني**)، ذكر فيه بعض الشخصيات التي تأثر بها، ومن بين هذه الشخصيات شخصية غاندي. يقول سلامة موسى عنه:

«وُلد غاندي إنسانًا، ومات قديسًا. ولم يكن غاندي مؤلفًا، من حيث فن التأليف الكتابي وإخراج الكتب، ولكنه ألّف ما هو خير من الكتب. ألف حياته التي كانت مصباحًا مُنيرًا نحو أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات. وقد كانت دعواته أو رسالاته متعددة، فقد دعا إلى الوطنية الهندية ومحاربة الاستعمار، وإلى الاستقلال والحرية، كما دعا إلى المغزل والمنسج، وإلى الطعام النباتي.

ولكن كل هذه الدعوات كان يسودها روح القداسة. ولذلك نستطيع أن نقول إن دعوته الأولى هي القداسة.

ذلك أن وطنيته لم تكن للهند وحدها، وإنما كانت إخاءً بشريًا لسكان هذا العالم كله.

ولم يكن دمويًا، قائمًا على البطش والدم، وإنما كان مقاومة سلبية تنهض على حضّ الهنود على ألا يتعاونوا مع المستعمرين لهضم حقوقهم وضغط حرياتهم. ولم يكن تدينه لديانة آبائه فقط، أي الهندوكية، إذ هو كان يجعل صلاته حافلة جامعة للإنجيل والتوراة والقرآن والكتب الهندوكية المقدسة. وقد صام أكثر من نصف عام على فترات، كي يحمل الهندوكيين والمسلمين على الإخاء، وبذلك رفع السياسة إلى مستوى القداسة».

كما يقول:

«علمنا غاندي أيضًا أن حكمة الحكيم ليست بالاقتناء، وإنما هي بالاستغناء، وأننا نستطيع أن نحقق السعادة والمكانة، وأن ننجز وعد حياتنا على الأرض، بالقليل من الحاجات، من دون هذا البذخ الذي يُضنينا بلوغه، ثم لا يُسعدنا الحصول عليه، وأن ضرورات العيش من مسكن وملبس ومطعم قليلة، بل إننا إذا أقللنا منها عشنا على أحسن حال، كما تتوافر لنا بهذه القلة القوة والوقت للاستمتاعات العالية.

وعلمنا، نحن الشرقيون، أن الاستعمار عدو لا شك فيه. ولكن هناك ما هو أعدى منه لنا، وهو الاستمساك بعادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية، لا يصلُح أن تبقى في القرن العشرين».

وقد أصدر الكاتب الصحفي والإعلامي المعروف فايز فرح، سنة 1989م، كتابًا شائقًا عنوانه (**عباقرة هزموا اليأس**)، ضم عدة شخصيات كان من بينهم المهاتما غاندي، حيث كتب عنه فصلًا عنوانه (الهادئ يهزم الجبابرة). يقول فرح عن غاندي إنه «أحب بني وطنه ثم تدرّج في حبه فشمل الإنسان في كل مكان، وترجم هذا الحب إلى أعمال فكان بسيطًا متقشفًا زاهدًا مُدافعًا عن الخير والحق والحرية والقيم النبيلة كلها، واختتم حياته شهيدًا لحبه وعدم تعصبه»، ويضيف «كان غاندي وما زال نموذجًا لأبطال التحرير والثوار الوطنيين في كل مكان من العالم».

كما يصفه بأنه «قديس القرن العشرين العبقري الذي هزم بهدوئه ومبادئه الإنسانية اليأس من الاحتلال.. والاستعمار واللاإنسانية».

في سبيل الحق

للمهاتما غاندي مذكرات ترجمها إلى اللغة العربية محمد سامي عاشور ونشرتها دار المعارف بمصر سنة 1969م تحت عنوان «**في سبيل الحق أو قصة حياتي**».

يقول غاندي في ختامها:

«إن لتجاربي قدرًا كبيرًا في حياتي، وإن كنت لا أدري هل استطعت أن أوفيها حقها من العرض السليم، وكل ما أستطيع أن أقوله هو إنني لم أدخر لكي أروي قصة حياتي بصدق وأمانة. لقد كان جهدي كله متجهًا إلى تقصي الحق كما تجلّى لي، فكان ذلك معينًا لا ينضب من المدد الروحي الذي بعث إلى نفسي الاستقرار والسكينة وأوحى إلى عقلي بالهدوء والسلام، فإن أعظم أمنية لي من رواية تجاربي هي أن يكون فيها ما يعيد الإيمان بالحق وبالمحبة لمن كان مترددًا أو كان في قلبه زيغ.

فلقد أقنعتني تجاربي في مختلف نواحي الحياة بأنه ما من إله غير الحق. وإذا كان في صفحات هذه الفصول ما لا يوحي إلى القارئ بأن الطريق الوحيد للوصول إلى الحق هو طريق المحبة، فلا مناصَ لي من أن أعتبر أن كل ما بذلته من جهد في تصنيف هذه الفصول قد ضاع هباءً منثورًا، وحتى إذا كانت جهودي في هذا السبيل لم تثمر، ولم تؤتِ أكلها، فرجائي إلى

القارئ أن يذكر أن الخطأ في ذلك إنما هو في طريقة العرض، لا في المبدأ نفسه. على أن جهودي في سبيل نشر المحبة مهما كانت خالصة مخلصة فهي بالضرورة غير كافية وغير مبرأة من كل شائبة. فاللمحات السريعة التي استطعت فيها أن أتبيّن الحق لا تمكن أن تعطي صورة كاملة عن نور الحق المتلألئ الذي يسمو في إشعاعه على نور الشمس الساطعة، الذي نراه بأعيننا كل يوم، ملايين المرات. بل الواقع أن ما رأيته من ذلك النور ليس إلا بصيصًا خافتًا من نور الحق المشرق، ولكن شيئًا واحدًا مع ذلك أستطيع أن أقوله بثقة ويقين بعد كل تجاربي، وهو أنه لا سبيل إلى رؤية الحق إلا بعد السمو إلى أقصى المراتب في محبة الكائنات جميعًا.

نعم، فلكي نستطيع أن نشاهد روح الحق التي تسود الكون وتتخلّل كل جنب من جنباته ونلقاها وجهًا لوجه يجب أن نتعلم كيف نحب أدنى المخلوقات وأقلها شأنًا كما نحب أنفسنا، والرجل الذي يطمع في ذلك لن يستطيع مع ذلك أن ينأى بنفسه عن أي ميدان من ميادين الحياة، وهذا هو السبب في أن إخلاصي للحق قد جذبني إلى ميدان السياسة. وإني لأستطيع أن أقول من غير تردد على الإطلاق، ولكن بتواضع كبير، إن من يقولون بأن الدين لا شأن له بالسياسة لا يعرفون كنه الدين.

وكذلك لن يستطيع المرء أن يتعرف على كل شيء حي إلا إذا طهر نفسه من أدرانها. فمن غير أن يُطهر الإنسان نفسه ستبقى كل طاعة لقانون المحبة حلمًا غامضًا وسرابًا يخدع الناظرين، والله تعالى لن يتجلى لمن كان قلبه أعمى، لذلك كان تطهير النفس معناه تخليصها من جميع أدرانها في كل ناحية من نواحي

الحياة. ولما كان تطهير النفس ينتقل بالعدوى كان تطهير الإنسان لنفسه باعثًا على تطهير البيئة التي يعيش فيها.

غير أن طريق الطهر طريق شاق شديد الانحدار، ولكي يصل الإنسان إلى أكمل درجات الطهر يجب أن يتخلص في تفكيره، وفي حديثه، وفي فعله، من كل أثر للشهوات، وأن يرقى بنفسه فوق مستويات التذبذب بين الحب والكراهية، بين الوصل والبعد. وإني لأدرك أنني لم أصل بعد إلى الطهر المنشود في هذه النواحي الثلاث، على الرغم من جهودي التي لا تنقطع في سبيل ذلك، ولهذا كان إطناب العالم كله لا يهزني أو يحركني، بل إني كثيرًا ما أحس بوخزه.

وإن قهر الشهوات الكامنة في النفس لهو أشق بكثير من قهر العالم بحد السيف، وقد أحسست منذ عودتي إلى الهند بأثر هذه الشهوات التي ترقد في كوامن النفس وتختفي في أعماقها، فكان إحساسي بذلك يشعرني بالذلة والهوان وإن لم يشعرني بالهزيمة.

ومع أن تجاربي كانت تشدّ من أزري وتبعث في نفسي سرورًا عظيمًا، فإني أعلم مع ذلك علم اليقين أن الطريق أمامي لا يزال طويلًا ووعرًا، وأن عليَّ أن أُنقص من قدر نفسي وأن أتضاءل حتى أكون صفرًا، فإنه لا سبيل إلى خلاص المرء إلا إذا اتخذ مكانه طائعًا مختارًا في نهاية الصف بين زملائه في البشرية. ذلك أن المحبة والتعفف عن العنف والكراهية هما أعلى مراتب التواضع.

وإني إذ أودع القارئ الآن، على الأقل مؤقتًا، أرجو منه أن يشاركني في الدعاء إلى الإله الحق أن يسبغ عليَّ نعمة المحبة في تفكيري، وحديثي، وفعلي».



بداية لا خاتمة

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ..

هكذا عاش زعيم الهند القدير، المهاتما غاندي (1869-1948م)، ومات أيضًا، في سبيل مجموعة من القيم الإنسانية السامية والأفكار النبيلةِ والمبادئ الراقية التي آمن بها ونادى بتطبيقها بين البشر، مُتمنيًا أن تسود المجتمع الإنساني لترتقي به.

وكانت مواقفه تتسق مع تلك الأفكار التي تدور في مجملها حول الحب والحق والعدل والحرية والتسامح والإخاء والسلام والتعاون بين البشر، فضلًا عن طلب الحق من طريق السلم لا العنف.

لقد عاش غاندي رمزًا للشجاعة في قول الصدق، ومثالًا للنضال من أجل طلب الحق، وهو في الحقيقة لم يمت، ذلك أن الأفكار والقيم والمثل العليا إنما تظلّ حية لا تموت، إذ إنها تعيش وتنمو وتنتشر لتؤثر في أجيال جديدة تتطلع إلى حاضر أفضل ومستقبل مُشرق.

لقد عبر غاندي، بمواقفه وآرائه وأفكاره على السواء، عن انتماء حقيقي، ليس لدولة الهند وحدها ولكنه أيضًا ـ وفي جانب كبير منه ـ انتماء حقيقي للإنسانية والبشرية جمعاء.

والواقع أن المناضل العظيم غاندي إنما يظل نموذجًا إنسانيًا

متميزًا وبطلًا رائعًا يستحق منا أن نقرأ حياته باستمرار، لنتعلم من أفكاره وآرائه ومواقفه، ونستلهمها في الكثير من الأحيان، وبالأخص في وقتنا الحاضر الذي يحسُنُ بنا الاستفادة فيه من حياة هؤلاء المناضلين الشجعان، الذين دافعوا عن قيم راقية وتمسكوا بمبادئ سامية، وفي مقدمتهم المناضل الكبير غاندي.

إنه ثمة شكر واجب للمناضل العظيم المهاتما غاندي الذي أهدانا حياته، نتعلم منها ونستفيد، لعلنا نقتضي بها في حياتنا من أجل الخير العام ومن أجل صالح أوطاننا وسلامة مجتمعنا البشري وسعادة عالمنا الإنساني المشترك.

مصادر ومراجع مختارة

مؤلفات:

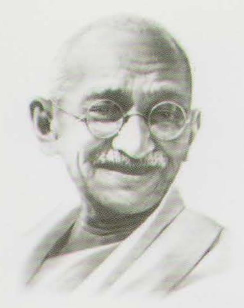
- راجندرا برازاد، **تحت قدمي غاندي**، ترجمة: منير البعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت: دار العلم للملايين، 1959م.
- غاندي، **في سبيل الحق أو قصة حياتي**، ترجمة: محمد سامي عاشور، القاهرة: دار المعارف بمصر، 1969م.
- سلامة موسى، **هؤلاء علموني**، الطبعة الثانية عشرة، القاهرة: دار ومطابع المستقبل، 2002م.
- فايز فرح، عباقرة هزموا اليأس، القاهرة: دار الثقافة، 1989م.
- صحف: (المقطم) ـ (مصر) ـ (السياسة) ـ (البلاغ) ـ (المصري) ـ (أخبار اليوم) ـ (الأهرام) ـ (الإنذار) ـ (روز اليوسف) ـ (آخر ساعة) ـ (الهلال).. نهاية كانون الثاني/ يناير وبداية شباط/ فبراير 1948م.

مواقع إلكترونية:

-http://arab-ency.com/index.php?module = pnEncyclopedia &func = display_term&id = 161659&m = 1

-http://www.eqtibas.com/author/72

-http://presidentofindia.nic.in/formerpresidents.html
-http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid = 22873
-http://www.arab-ency.com/index.php?module = pnEncyclopedia &func = display_term&id = 2569&m = 1
-http://www.alghad.com/index.php/article/295227.html
-http://www.mahatma.com/index.php
-http://www.marefa.org/index.php/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%B9%D9%84%D9%8A_%D8%AC%D9%86%D8%A7%D8%AD
-http://www.almaany.com/home.php?language = arabic &lang_name = %D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A &word = %D8%B0%D9%85%D8%A7%D8%A1



الكتاب

يتناول هذا الكتاب حياة المهاتما غاندي (1869-1948م)، الزعيم الهندي المعروف، وصاحب الدور الأبرز في استقلال الهند عن بريطانيا، من خلال التركيز على آرائه وأفكاره وتقديم أبرز مواقف نضاله ضد مظاهر الظلم والاستبداد والاستعباد.

والكتاب يُلقي الضوء على دور غاندي في نشر ثقافة اللاعنف والتسامح فضلًا عن جهده في تدعيم قيم المحبة والتعاون والتسامح والسلام وغيرها من القيم الراقية بين مختلف فئات الشعب الهندي، ذلك أن حياة الزعيم غاندي قد اشتملت على مجموعة من المبادئ السامية والقيم الإنسانية الراقية، التي نادى بها وناضل من أجلها وكافح في سبيل تحقيقها، والتي اتفق فيها القول مع الفعل، إذ كان الحق واللاعنف هما مبدآ المهاتما غاندي باستمرار.

ومن ثم فإنه لم يكن غريبًا أن يكون لحياته تأثير كبير في نفوس كثيرين، ليس ممن عاصروه وعاش بينهم فحسب، فتأثروا به، ولكن أيضًا في نفوس كثيرين من خارج الهند، في آسيا وأوروبا وأفريقيا والأميركيتين، بل ومن خارج عصره أيضًا، حيث انتقلت آراؤه وانتشرت أفكاره عبر الزمان والمكان لتصبح أفكارًا عالمية لها قيمتها ومكانتها وتقديرها.

لعلنا نتعلم ونستفيد من تلك المواقف والرؤى والأفكار، نستلهمها في حياتنا وسلوكياتنا، ونحن نتطلع إلى بناء حاضر أفضل ومستقبل مُشرق لأوطاننا وعالمنا الإنساني المشترك.


ISBN 978-614-418-242-0

جداول Jadawel
www.jadawel.net